الصراع

بين الإيمان والمادية

تأملات في سورة الكهف

الطّبْعَة الأولىٰ
١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

تُطلب جميع كتبنا من :
دَار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دَار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

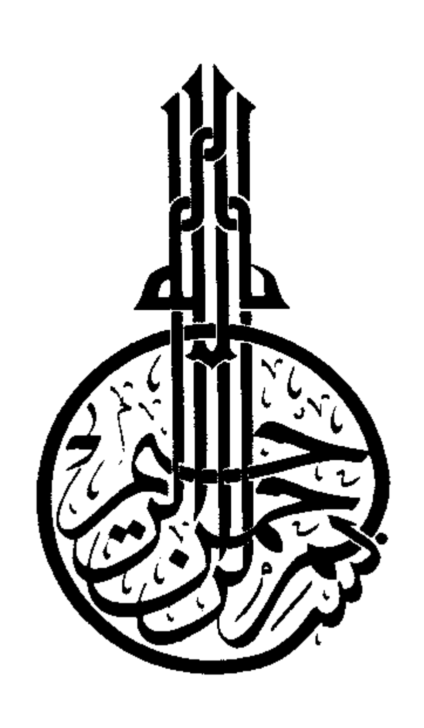
كتب قيّمة
(١٤)

الصّراع
بين الإيمان والمادية
تأملات في سورة الكهف

بقلم
أبو الحسن علي الحسني الندوي

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الكريم، محمد وآله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فقد نشرت مجلة «المسلمون» الغَرَّاء سلسلة مقالات للكاتب بعنوان «تأملات في سورة الكهف» نشرتها تباعاً في عام ١٣٧٧ هـ ـ ١٩٧٨م (المجلَّد السادس، عدد ١، ٢، ٣، ٤)، حظيت بالعناية والإعجاب في الأوساط العلمية الدينية، ولعلها كانت باعثة لكثير من القرَّاء على دراسة هذه السورة الكريمة والتأمُّل فيها من جديد، والاقتناع بأن بينها وبين فتن هذا العصر، والقدرة على مقاومتها صِلة قوية عميقة، وبقيت هذه المقالات دفينة مطمورة في مجلَّدات المجلة، لا يتّسع وقت الكاتب لتنقيحها والزيادة فيها، ولنشرها في كتاب، حتى جدَّت حوادث في العالمين العربي والإسلامي، ورأى المؤلِّف، افتتان العقول والنفوس بالماديَّة، وسرعة إيمانها بكل دعوة برعت وفاقت في التدجيل والتلبيس،

ورأى قصة الصراع بين الإيمان والمادّيّة تمثَّل على مسرح العالم بصفة عامة، وعلى مسرح الشرق العربي بصفة خاصة من جديد، وكل ذلك شحذ العزم على نشر هذه السلسلة، وجدَّت للمؤلف في هذه المدّة دراسات وتأملات، وتفتَّحت له منافذ جديدة، وجوانب عديدة في التدبُّر في معاني هذه السورة.

فتناول هذه المقالات بالتحرير والزيادة، وضمَّ إليها مواد جديدة، وبحوثاً مقارنة في قصة أصحاب الكهف وذي القرنين تزيد هذه السلسلة قيمة علمية، وتحمل الباحثين على الدراسات المقارنة، وإثبات إعجاز القرآن وهدايته للإنسان في كل زمان ومكان.

وها نحن أولاء ننشر هذا الكتاب متوكِّلين على الله، ثم معتمدين على أنَّ الإيمان لم تنطفىء جَمْرتَه، وعلى أنَّ النفوس لم تفقد صلاحيتها لقبول النافع المقبول، والمستقيم المعقول، وعلى أنَّ الخيط الذي كان يربط قلوب هذه الأمَّة بهذا الكتاب لم ينقطع بعد، ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٢٥/ شعبان/ ١٣٩٠هـ

أبو الحسن علي الحسني الندوي

صلتي بسورة الكهف

مِنَ السُّوَر التي نشأتُ على قراءتها منذ عَقَلْتُ وميَّزت: سورة الكهف، أتلوها يوم الجمعة[1] تعبُّداً وثواباً كعامة الناس، وفي دراستي للحديث النبوي الشريف رأيت حَثّاً على قراءة سورة الكهف وحفظها، وأنَّ ذلك يعصم من الدجَّال[2]. وتساءلت: هل

---

(١) يرجع الفضل في ذلك إلى تربية أمي السيدة خير النساء، التي كانت توصيني دائماً بقراءة هذه السورة الكريمة يوم الجمعة، وتحاسبني عليها حيناً بعد حين. حتّى حفظتها بكثرة قراءتي لها، وكانت من السيدات المثقَّفات، الثقافة الدينية، حفظَتْ القرآن، ولها مؤلَّفات وشعر رقيق مطبوع تناجي به الله، وتعبِّر فيه عن عواطفها الدينية. توفِّيت إلى رحمة الله تعالى لستٍّ خلوْنَ من جمادى الآخرة ١٣٨٨هـ.

(٢) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: «مَنْ قرأ سورة الكهف كما أُنزلت ثم خرج الدجَّال لم يُسلَّط عليه، ولم يكن عليه سبيل». (رواه الحاكم في المستدرك)، وأخرج ابن مردويه والضياء في المختارة عن علي قال: «قال رسول الله ﷺ: مَنْ قرأ الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كلِّ فتنة تكون، فإن خرج الدجَّال عصم منه».
وعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «من حفظ عشر آيات من أول (ورُويَ من آخر) سورة الكهف عُصِمَ من فتنة المسيح الدجَّال»، أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي، وعنده ثلاث آيات من سورة الكهف، وصحَّحه، وفي مسند أحمد: «مَن قرأ عشر آيات من سورة الكهف عُصِم=

في هذه السورة من المعاني والحقائق والتنبيهات والزواجر، ما يعصم من هذه الفتنة التي استعاذ منها النبي ﷺ كثيراً، وحثَّ أمَّته على الاستعاذة منها حثّاً شديداً، والتي هي الفتنة الكبرى الأخيرة التي قال عنها: «مابين خَلْق آدم إلى قيام الساعة أمرٌ أكبر من الدجَّال»[1]، ولماذا خصَّ رسول الله ﷺ ـ وهو أعرف خلق الله بكتاب الله وأسراره وعلومه ـ هذه السورة الكريمة من بين سور القرآن؟

صلة سورة الكهف بفتن العهد الأخير:

ورأيت نفسي تتوق إلى معرفة سرِّ هذا التخصيص، والصِّلة المعنوية بينها وبين هذه العصمة، التي أخبر بها رسول الله ﷺ، ففي القرآن سور من القصار المفصَّل، وسور من الطِّوال، عَدَل عنها النبي ﷺ إلى هذه السورة، وخصَّها بهذه الخاصة العظيمة[2]!!

= من فتنة الدجّال». (ج٦ ص ٤٤٦ـ ص٤٤٩). وروى النسائي: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف فإنه عصمة له من الدجَّال» والأحاديث في ذلك كثيرة.

(١) رواه مسلم عن عِمْران بن حُصَين.

(٢) وقد انتهج بعض العلماء الراسخين، وكبار المحدِّثين والمفسِّرين هذا المنهج من التفكير، وتأمَّلوا في هذه السورة، ورأوا بينها وبين فتنة الدجَّال صلة معنوية، وقد نقل العلاَّمة محمد طاهر الفتني (م ٩٨٦هـ) في مجمع=

واقتنعت إجمالاً بأنَّ هذه السورة، هي السورة القرآنية الفريدة، التي تحتوي على أكبر مادة وأغزرها فيما يتصل بفتن العهد الأخير التي يتزعَّمها الدجَّال، ويتولَّى كِبْرها، ويحمل رايتها وتحتوي على أكبر مقدار من التِّرْياق الذي يدفع سُموم الدجَّال ويبرىء منها، وأنَّ من يتشرَّب معاني هذه السورة ويمتلىء بها - وهو نتيجة الحفظ والإكثار من القراءة في عامة الأحوال - يعتصم من هذه الفتنة المقيمة المُقْعِدة للعالم، ويَفلَت من الوقوع في شباكها، وإنَّ في هذه السورة الكريمة من التوجيهات والإرشادات، والأمثال والحكايات ما يبيِّن الدجَّال ويشخِّصه في كل زمان ومكان، وما يوضِّح الأساس الذي تقوم عليه فتنته ودعوته، وتهيىء العقول والنفوس لمحاربة هذه الفتنة ومقاومتها، والتمرُّد عليها، وأنَّ فيها روحاً تعارض التدجيل وزعماءه، ومنهج تفكيرهم، وخطَّة حياتهم في وضوح وقوَّة.

السورة خاضعة لموضوع واحد: اقتنعت بهذه الفكرة إجمالاً،

= بحار الأنوار، عن بعض من تقدَّم قوله: «وفي الحديث في فضل سورة الكهف: عصم من الدجال، أي الذي يخرج في آخر الزمان، كما عصم أصحاب الكهف من ذلك الجبَّار، أو من كل دجَّال يُلبِّس، لما في هذه السورة من العجائب والآيات، فمن تدبَّرها لم يفتتن»، قال: «وعندي أنَّ ذلك لخاصِّية اطَّلع عليها النبي ﷺ»، (مجمع بحار الأنوار، مادة «دَجَل»).

وأقبلت إلى دراسة هذه السورة الكريمة، كأنَّها سورة جديدة عليَّ، ودخلت في معانيها ومضامينها، وأنا أحمل هذا المصباح ـ الفكرة التي اقتنعت بها ـ فوجدتني في عالم من المعاني والحقائق لا عهدَ لي به من قَبْل، ووجدت السورة كلَّها خاضعة لموضوع واحد، أستطيع أن أسمِّيه «بين الإيمان والمادية» أو «بين القوة المصرِّفة لهذا الكون (هو الله) وبين الطبيعة أو الأسباب»، ووجدت جميع الإشارات أو الحكايات، أو المواعظ والأمثال دائرة حول هذا المعنى، تشير إليه من طريق جَلِيٍّ، أو تنظر إليه من طرف خفيّ.

واغتبطت بهذا الفتح، وانكشف لي جانب جديد من إعجاز القرآن، ونبوة محمد ﷺ، فما كنت أعرف أنَّ هذا الكتاب الذي نزل في القرن السادس المسيحي ـ يعني قبل ثلاثة عشر قرناً وزيادة ـ[١] يحمل صورة صادقة ناطقة بهذه المدنية الداخلة التي تولَّدت في القرن السابع عشر المسيحي، واختمرت في القرن العشرين، ويصوِّر نهايتها وأوجها، وزعيمها الأعظم الذي يسمِّيه لسان النبوة في إعجاز وإيجاز «بالدجَّال».

وفاض على قلمي بعض هذه المعاني، والتمهيد لتفسير هذه السورة بالإجمال، وأنا معلِّم التفسير في دار العلوم ندوة العلماء

---

(١) بل قبل أربعة عشر قرناً وزيادة (الناشر).

قبل خمس وعشرين سنة تقريباً، ونشرته في مجلة «ترجمان القرآن» لصاحبها ورئيس تحريرها الأستاذ أبي الأعلى المودودي، التي كانت تصدر من حيدر آباد يومئذٍ.

واتَّفق لي أن نزلتُ ضيفاً على العلاَّمة الكبير نادِرَةِ هذا العصر الشيخ مناظر أحسن الكيلاني[1]، رئيس القسم الديني في الجامعة العثمانية بحَيْدر آباد سنة ١٣٦٦هـ. (١٩٤٦م)، وكنَّا نتذاكر كل ليلة، فذكر لي أنه اطَّلع على هذه المقالة القصيرة، وسُرَّ بها، وأخبرني أنَّه كتب في هذا الموضوع على عادته بإسهاب وتوسُّع، وسيرسله إلى مجلة «الفرقان»، وأصدرت هذه المجلَّة عدداً خاصَّاً بالراحل العظيم نشرت فيه هذه المقالة برمَّتها.

لقد أثارت هذه المقالة ـ المنشورة من جديد ـ الرغبة في

---

(١) هو أوسع العلماء الذين عرفتهم في هذا العصر ثقافة، وأغزرهم علماً، يمتاز بالذكاء الباهر، ودقَّة الاستنتاج، وتوليد المعاني، وسَيَلان القلم، والاطِّلاع الواسع على العلوم الدينية، والتاريخ والفلسفة، ولد عام ١٣٠٩هـ (١٨٩٣م)، ودرس في «تونك» و«ديوبند»، ورأس القسم الديني في الجامعة العثمانية بحيدر آباد، ودرس وخطب، وكتب وألَّف، ومن مؤلَّفاته البديعة «النبي الخاتم» و«أبو ذر الغفاري» و«تدوين الحديث» و«حياة الإمام أبي حنيفة السياسية» و«نظام الإسلام الاقتصادي» ومقالات كثيرة قيِّمة، توفي عام ١٣٧٧هـ (١٩٥٦م) رحمه الله تعالى وأثابه.

الحديث عن هذه السورة العظيمة، وصلتها بالعهد الأخير، وفتنته، ودعواته، واتجاهاته، وفتنة الدجَّال بصفة خاصة، وما في ذلك من الدروس، والعِبَر، والآيات، ورأيت أن أقيِّد ما يجول في خاطري، وما فتح الله به عليَّ في فهم هذه السورة ـ مستعيناً بما جاء في مقالة العلاَّمة الكيلاني، الذي أعتبره من أساتذتي وشيوخي، وإن لم تكتب لي التلمذة التقليدية، وكان يعتبرني من أعزِّ إخوانه[١] ـ من النكت البديعة، والتوجيهات البليغة، ولطائف القرآن الدقيقة؛ وليس ما أكتبه تفسيراً لهذه السورة على أسلوب المفسّرين، إنَّما هي تأمُّلات ونظرات عامة في هذه السورة العظيمة.

مفتاح شخصية الدجَّال: مفتاح شخصية الدجَّال الذي تُفْتح به أغلاقها، وتُغْرف به أعماقها، وتتميَّز به عن سائر دعاة الشر والإفساد، والفكر والإلحاد، هو لقب «الدجَّال»[٢] الذي غَلَب

(١) كتب إليَّ رحمه الله على أثر علَّة برأ منها: «إنِّي كلما غلبني الوجع وانقطع الرجاء من الحياة تمثَّل لي وجود العزيز، وتمثَّلت بيت الشاعر:

أهيم بليلى ما حييت فإن أَمُتْ أوكِّل بليلىٰ من يهيم بها بعدي

(٢) قال ابن منظور في لسان العرب: «الداجل المموّه الكذّاب، وبه سمي الدجَّال، والدجَّال هو المسيح الكذَّاب، وإنَّما دَجَله سحره وكذبه، قال ابن خالويه ليس أحد فسَّر الدجَّال أحسن من تفسير أبي عمرو، قال: الدجَّال المموِّه، يقال دَجَلْت السيف موَّهته، وطليته بماء الذهب، قال=

عليه، فهو شِعاره الذي يُعرف به، والدَّجل والتدجيل، هو القطب الذي تدور حوله شخصيَّته، ودَعَواته، وأعماله، وتصرُّفاته.

وقد اتَّسمت الحضارة الماديَّة في العهد الأخير بالتدجيل[1] في كلِّ شيء، والتلبيس على الناس، وتسمية الأشياء بغير أسمائها، وتمويه الحقائق، وإطلاق الأسماء البرَّاقة الخلاَّبة للعقول على غير مسمَّياتها، وبكثرة الاختلاف بين الظاهر والباطن، والأول والآخر، والنظريات العلمية، والتجارب العملية، وهذا شأن الشعارات والفلسفات، التي حلَّت محلَّ الأديان، وسحرت النفوس والعقول[2]؛ والكلمات التي أحاطت بها هالات التقديس والتمجيد،

= الأزهري: كل كذاب فهو دجّال، ودَجَل الشيء بالذهب التذهيب، يقال لماء الذهب دجَّال، وبه شُبِّه الدجَّال لأنه يُظهر خلاف ما يُضمر. قال أبو العباس: سمِّي دجَّالاً لتمويهه على الناس وتلبيسه وتزيينه الباطن، يقال قد دجَّل إذا موَّه ولبَّس، (لسان العرب باختصار واقتباس).

(١) عن حذيفة بن اليمان قال: «إنَّ الدجَّال يخرج، وإنَّ معه ماءً وناراً، فأما الذي يراه الناس ماءً فنار تحرق، وأما الذي يراه الناس ناراً فماء بارد عذب» (أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة)، وفي رواية أبي هريرة «أنَّه يجيء معه مثل الجنة والنار، فالتي يقول أنها الجنة هي النار».

(٢) مثل «الحرية» و«الاشتراكية» و«الديمقراطية» و«رفع مستوى المعيشة» و«الرفاهية» و«الحقوق الإنسانية» وحتى لفظ «الحضارة» و«الفنون الجميلة» و«الدستور» إلى غير ذلك من الشعارات.

وحلَّ حبّها واحترامها في قرارة النفوس، وحبّات القلوب؛ وأصبح الشكُّ في قُدْسها، أو النقاش في كرامتها، ومكانتها علامة للرجعية، وإنكاراً للبداهة، والمشهود المحسوس.

وقد التبس الأمر بذلك على كبار الأذكياء، ونوابغ العلماء، فأصبحوا يتغنَّون بهذه الشعارات والفلسفات، ويدعون إليها في إيمان وحماس من غير تمحيص لنيَّة أصحابها وإخلاصهم، أو شجاعة في تحديد نجاحها وإخفاقها، في مجال العمل والتطبيق، والمقارنة الصحيحة المحايدة، بين ما كسبته الإنسانية والأمم الضعيفة، وبين ما خسرته من سلطان هذه الشعارات وتحت رايتها، من السعادة الحقيقية، والحقوق الفِطْرية. وهذا كلّه من قوة التدجيل وسحره، الذي يفوق فيه «الدجَّال الأكبر» على جميع الدجَّالين والمدلِّسين، والمموِّهين، الذين عرفهم التاريخ البشري.

وقد سرت هذه الروح «الدجليَّة المدلّسة» في هذه الحضارة، لسيرها على خط معارض لخط النبوَّة: الإيمان بالآخرة، والإيمان بالغيب، والإيمان بفاطر الكون، وقدرته المطلقة، واحترام شريعته وتعاليمه. وللاعتماد الزائد على الحواس الظاهرة، والشغف الزائد بما يعود على الإنسان باللذة البدنية المنفعة العاجلة، والغلبة الظاهرة، وهي النقطة التي تدور حولها سورة الكهف، وما جاء فيها من قصص وعِبَر.

دور المسيحية واليهودية المتشابه في توجيه المدنية ومصير الإنسانية:

وقد كان مع الأسف للمسيحية المحرَّفة ـ وهي التي قادت الحضارة في أوروبا بعد القرون الوسطى في العالم المتمدّن ـ ولليهودية الثائرة الموتورة دور متشابه ـ رغم الخلاف الجذري في العقيدة ـ في توجيه المدنية إلى المادية الرعناء، المجرَّدة من الروح وتعاليم الأنبياء، والتأثير في مصير الإنسانية على حدٍّ سواء، فقد بدأت الشعوب المسيحية التي تحرَّرت من رقِّ الكنيسة والبابوات، وضعفت صلتها ـ إذا لم نقل تقطَّعت كليّاً ـ بالمسيحية السمحة، المؤسسة على التوحيد الخالص، فاتّجهت اتّجاهاً ماديّاً عنيفاً، أصبح يهدِّد العالم ومصير الإنسانية بالاكتشافات العلمية الحديثة، والمخترعات المدمِّرة المبيدة، وفقد التوازن بين العلم والعاطفة والعقل والضمير، والصناعة والأخلاق.

وقد ساهم اليهود في العهد الأخير ـ بأسباب يعود بعضها إلى خصائص النسل والدم، وبعضها إلى التعليم والتربية، وبعضها إلى الغايات السياسية، والمشاريع القومية ـ بأكبر قسط في العلم

والفن، والاكتشاف والاختراع[1]، وفي السيطرة على هذه الحضـارة وتملُّك زمامهـا، وتوجيههـا في صالحهم والتأثير فـي الأدب والتـربيـة، والسيـاسـة والفلسفـة، والتجـارة، والصحافة، ووسائل التوعية والإعـلام، حتَّى أصبحـوا العنصـر الفعَّـال الرئيسي في قيادة الحضارة الغربية التي ظهـرت فـي بيئةٍ مسيحيّـة، وفـي حضـانـة شعـوب آمنـت بالمسيح، واحتضنت اسمه هذا العهد الطويل، ويبدو للناظر المتعمِّق في الحوادث الأخيرة، والمطَّلع على مدى نفوذ اليهودية العالمية في المجتمع الغربي، أنَّ هذه الحضارة وما تحـوي عليه من علم وفـن، ستبلغ نهايتهـا السلبية، وتصل إلى ذروتها في قوّة التدمير، والهدم والإفساد، والتلبيس والتدجيل، على أيدي اليهود الذين مكَّن لهم الغرب المسيحي ـ بغفلة منه وجهل بمراميهم البعيدة وطبيعتهم الحاقدة ـ كل تمكين ، وأتـاح لهم كـل فـرصة لم يكونـوا يحلمـون بهـا

(١) لا نوافق المؤلِّف الفاضل على قوله : إنَّ اليهود ساهموا بأكبر قسط في العلم والفن والاكتشاف والاختراع . فالواقع خلاف ذلك ، ونوافقه تمام الموافقة في بقية كلامه عن سيطرة اليهود على الحضارة الغربية وتوجيهها لصالحهم (الناشر) .

قبل قرون، وكانت في ذلك أكبر محنة للإنسانية وأكبر خطر على العالم، فضلاً عن العرب، الذين يكتوون بنارهم، فضلاً عن المنطقة المحدودة التي يجري فيها هذا الصراع الحاسم.

لذلك نرى أنَّ لهذه السورة اتّصالاً وثيقاً بالمسيحية واليهودية، فقد تعرَّضت للعقيدة المسيحية في مفتتحها، وهكذا تبتدىء السورة الكريمة:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِـَٔابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) ﴾ [الكهف: ١ ـ ٥].

وقد كانت السِّمة البارزة الثانية للحضارة التي نشأت في حضانة المسيحيين، وشبَّت وترعرعت تحت رعايتهم، الشغف الزائد بهذه الحياة المحدودة الفانية، والحرص على تمديدها وتزيينها، والمبالغة في إجلالها وتفخيم شأنها، والاتجاه إلى نفي كل ما وراءها، من مُثُل وقِيَم، وخيرات ونِعَم، والاقتصار على التنافس في السيطرة على أسبابها وطاقاتها وذخائرها، وهي النقطة التي تلتقي عليها اليهودية معها ـ رغم ما بينها من عداء وتناقض ـ فقد

تجرَّدت التوراة[1] عن ذكر عالم الآخرة، والحياة الآخرة، والحثِّ على الاستعداد لها، وصرف القوى والمواهب إلى نيل السعادة فيها، وإثارة الحنين والأشواق إلى نعمائها وطيِّباتها، والإشارة إلى قِصَر هذه الحياة الدنيا وتفاهتها، وذم حبِّ العلوِّ، والإفساد فيها، والتزهيد في زخارفها ومتاعها القليل، وحُطامها الزائل.. تجرَّدت عن كلِّ هذه المعاني تجرُّداً يثير العجب، ولا يعقل عن الكتب السماوية المنزَّلة من الله، وروحها وطبيعتها.

فلا عجب إذا كان تاريخ اليهود تاريخ التنافس على المادة، والنهامة للثروة، والكفاح للسيادة (السلالية)، والكبرياء القومي، وقد تجلَّى ذلك بوضوح في كلِّ ما نُسب إليهم من كتب دينية مقدَّسة، أو صدر عن أقلامهم وقرائحهم من أدب وشعر، وقصص وملاحم، ونبوَّات وكهانات، أو أُثر عنهم من بطولات ومغامرات، وحروب

(١) يريد المؤلف الفاضل بالتوراه: الأسفار الخمسة المنسوبة لموسى عليه السلام، والتي اصطلح اليهود والنصارى على تسميتها بالتوراة، وهي التوراة التي حرَّفها اليهود وأدخلوا فيها أشياء كثيرة من قصصهم وتواريخهم، أما التوارة التي أُنزلت على موسى عليه السلام ففيها ذكر الآخرة. قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٤-١٩]. (الناشر).

وثورات، أو عُرف عنهم من إبداعات واختراعات أو عُزي إليهم من أفكار وفلسفات، فإنَّ أندر شيء في كل ذلك، هو الرقَّة والتواضع، وهَضم النفس وإنكار الذات، والاستهانة بالحياة الدنيا، والشوق إلى لقاء الله، والحنين إلى الآخرة، والرحمة بالإنسانية على اختلاف طبقاتها، وأجناسها وأوطانها.

ولذلك ثنَّى الله تبارك وتعالى الإنكار على عقيدة الشرك، وعقيدة الإبْنِيَّةِ أو الوَلَدِيَّة التي تبنَّتها المسيحية، وتولَّت كبرها، والإنكار على عبادة هذه الحياة، واتّخاذ دارها المحلّ والقرار، والانصراف إليها عن كل ما سواها، ونوَّه بقِصَر هذه الحياة، وتداعي هذا الأساس الذي تقوم عليه، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٧، ٨].

وأعاد هذا الإنكار والتشنيع على عُبَّاد الحياة الدنيا ومنكري الآخرة، أو الغافلين عنها، فقال: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

وهكذا أحاطت عقيدة الآخرة، وعقيدة الإيمان بالغيب، والإيمان بفاطر هذا الكون، وقدرته المطلقة المسيطرة على كل شيء، المتصرِّفة في كل شيء، بأول هذه السورة وآخرها، وبجميع

جوانبها، وهي عقيدة ونفسية، وعقلية وطبيعة، تأباها المادية التي لا تعتمد إلاَّ على الحسّ والمشاهدة والتجربة، والمنفعة العاجلة، واللذة البدنية، والسيادة القومية أو العنصرية، وتتنصل عنها وتحاربها بكل قوة ووسيلة، فجاءت هذه السورة تشتمل على مادة تستأصل جذور المادية التي قدَّر الله أن يكون المسيحيُّون أكبر مربّيها ودعاتها، والمشرفين عليها، في رحلة التاريخ الطويلة، ثم يتولّى قيادتها اليهود الذين حاربوا المسيح منذ أول عهده، ونافسوا المسيحية في جميع عهودها، وعلى أيديهم تبلغ هذه المادية ذروتها الأخيرة، وفيهم يظهر الدجَّال الذي يكون أعظم بطل من أبطال الكفر والإلحاد، والتدجيل والتلبيس، وقد أخبر رسول الله ﷺ بأنَّ تلاوة هذه السورة، والمحافظة على أوائلها أو خواتيمها تعصم من فتنته، وهكذا كانت بين بداية هذه السورة ونهايتها مناسبة لطيفة لا تخفى على الناظر المتأمِّل، ولمجموع السورة صِلَة وثيقة، عميقة بفتنة الدجَّال الذي يظهر في وقته.

قصص هذه السُّوَر الأربع

لقد اشتملت هذه السورة على أربع قصص، هي معالم هذه السورة وعمدها، وأقطابها الأربعة التي تدور حولها حِكمها، وتعاليمها، ومواعظها، وهي:

١ ـ قصة أصحاب الكهف والرقيم.

٢ ـ قصة صاحب الجنَّتين.

٣ ـ قصة موسى والخضر (عبد الله الذي آتاه الله رحمة من عنده وعلَّمه من لَدنه علماً).

٤ ـ قصة ذي القرنين الذي مكَّن الله له في الأرض، وآتاه من كلِّ شيء سبباً.

إنَّ هذه القصص وإن تنوَّعت أساليبها وسياقها، اتَّحدت في الغرض والغاية، والروح التي تجمع بينها، وتربطها ربطاً معنوياً، عميقاً وثيقاً، وإليك شرح هذا الإجمال:

نظرتان في هذا الكون:

إنَّ هذا الكون خاضع ـ في غالب الأحوال ـ لأسباب طبيعية تتحكَّم في العالم، وتتصرَّف فيه، وهي القوى الكونية التي تسيطر على هذا النظام، وهي الأسباب وخواص الأشياء التي قلَّما تفارق هذه الأشياء وقلَّما تخطىء، وفي الناس من اقتصر نظره على هذه الظواهر والأسباب الطبيعية، واقتصر نظره على هذه الحياة، وعلى هذا العالم المادي المحسوس، ورأى أنَّ المسبّبات والنتائج تابعة دائماً لأسبابها وعللها، مرافقة لها لازمة، ليس في الوجود من يحول بين هذه الأسباب وهذه المسبّبات، ويتصرَّف فيها بإرادته المطلقة، ويستطيع أن يوجد المسبِّبات من غير أسباب، ويبدعها إبداعاً، وتعلَّق بهذه الأسباب، وعبدها كالأرباب، وكفر بكل قوة وراء هذه الأسباب والخواص، وبكل قوة تسيطر على هذا العالم، وتحكمه حكماً مطلقاً كليّاً، وكفر بالحياة بعدها، وبالبعث والنشور، وبذل جهده ومواهبه في تسخير هذه القوة الكونية، والأسباب والخواص، وتسخير المادة، وهام في سبيلها، وبالغ في تمجيدها وتقديسها حتى جعلها ربّاً وإلٰهاً، وأصبح يكفر بكل شيء سوى المادة والقوة، حتى إذا نال منها غايته، وسخَّر بعضها أو أخضع بعضها لإرادته وحاجته، اعتقد ألوهيته، أو أعلن ربوبيّته ـ بلسان المقال أو بلسان الحال ـ واستعبد بني جنسه، وعاث في

دمائهم وأموالهم وأعراضهم، واستباحها لأغراضه وشهواته، أو طموحه، أو مجّد أمته ووطنه، أو أسرته وحزبه.

وهنالك نظرة أخرى في هذا الكون تعارض النظرة الأولى في الأساس والمنهج: وهي أنَّ وراء هذه الأسباب الطبيعية، والقوى الكونية، والخواص المودَعة في الأشياء، قوة غيبية تملك زمام هذه الأسباب والخواص، وكما أنَّ هذه الأسباب سبب لهذه المسببات، فالإرادة الإلهية القاهرة سبب لهذه الأسباب نفسها، تخلقها وتسيِّرها، وتفكُّها من مسبباتها إذا شاءت، فهي سبب الأسباب، وهي علَّة العلل. وإليها المنتهى في سلسلة الأسباب والعلل، وإنَّ خالق هذا الكون، وخالق هذه الأسباب لم يفلت من يده زمام هذا الكون في حين من الأحيان، ولم تتحرر هذه الأسباب من رقّه وحكمه، وهي لا تتمرَّد عليه ولا تستعصي، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، هو الذي ربط الأشياء بالخواص، والمسبَّبات بالأسباب، والمقدِّمات بالنتائج لحكمة بالغة، وإرادة قاهرة، وهو الذي يربط ويفكّ، ويثبت ويمحو، ويوجِد الأشياء من العدم، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

وإنَّ هنالك أسباباً مؤثِّرة أخرى تعمل في هذا العالم، وفي مصير الأفراد والأمم، كالأسباب الطبعية أو أشدّ، وتتبعها نتائج قد تكون أعظم وأضخم من النتائج الطبعية المادية التي تتبع أسبابها، وهي

الإيمان والعمل الصالح، والأخلاق الفاضلة، وطاعة الله، والعدل، والعبادة، والرحمة، والمحبة، إلى غير ذلك من المعنويات. وأسباب تعمل عكسها، كالكفر والبَغي، والفساد في الأرض، والظلم والشهوات، والآثام، إلى غير ذلك من المعنويات أيضاً.

وإنَّ من تمسَّك بالأسباب المعنوية الصالحة ـ من غير تعطيل للأسباب الطبعية ـ صَالَحَهُ هذا الكون، وطابت له الحياة، ويسَّره الله لليسرى وخرق له ـ في بعض الأحيان والمناسبات ـ بعض عاداته، وأخضع له الأسباب الطبعية؛ ومن تمسَّك بعكسها من المعنويات والأخلاق والسلوك في الحياة، واعتمد على الأسباب الطبعيَّة فقط، وأسَّس عليها حياته، حاربه هذا الكون وخانته القوى التي أخضعها، وهو أحوج ما يكون إليها، وثارت عليه الطبيعة.

سورة الكهف، قصة الصراع بين الإيمان والمادية:

إنَّ سورة الكهف قصة الصراع بين النظرتين والعقيدتين والنفسيتين، صراع بين الإيمان بالمادة وما يتبعها، وبين الإيمان بالغيب، والإيمان بالله؛ وشرح لما تتبع كل نظرة من العقيدة، والعمل والأخلاق، والنتائج والآثار، وتحذير من اتّخاذ النظرة الأولى التي تؤمن بالمادة والظاهر، وتكفر بالله والغيب.

وأنظر الآن في القصص الأربع، وأبدأ بالقصَّة الأولى:

(١)

قصّة أصحاب الكهف

مَنْ كان أصحاب الكهف والرقيم؟ ماهي قصَّتهم؟ وما قيمة هذه القصَّة ومكانتها في تاريخ الإنسان؟ ولماذا خصَّها القرآن بالذكر، حتى جعلها قصَّة باقية خالدة، تُتْلَى على اختلاف الزمان والمكان؟.

قصَّة أصحاب الكهف في الأدب المسيحي، والقصص الدينية:

وقبل أن نقرأ قصَّة أصحاب الكهف في الأسلوب القرآني المعجز، المركَّز الهادف، والبلاغة القرآنية التي لا حشو فيها ولا فضول، نستعرض قصة أصحاب الكهف في الكتب التي تقدَّمت، وفي القصص التي تناقلتها الألسن، وتوارثتها الأجيال، ونقارن بين موافقات القصَّتين ومفارقاتهما.

لم ترد قصة أصحاب الكهف في أسفار العهد العتيق، فإنَّها

حادثة وقعت في فجر التاريخ المسيحي، وبعد ما ظهرت الدعوة إلى التوحيد ورفض الأوثان، عن طريق أتباع المسيح عليه الصلاة والسلام، وبعد ما دُوِّن آخر سفر من أسفار العهد العتيق، وليست القصة بطبيعتها ـ وقد تجلَّت فيها بطولة أتباع المسيح واستقامتهم ـ مما يحرص اليهود على حفظها ونقلها، والتغنّي بها، ولكنها من أحبِّ القصص الدينية إلى المسيحيين، لأنَّها من أعظم القصص غرابة، وأشدها دلالة على صرامة أتباع المسيح الأوَّلين، وقوَّة إيمانهم، وتفانيهم في سبيل العقيدة والمبدأ، وغَيْرتهم على تعاليم المسيحية النقيَّة الأولى، وهي صالحة لإشعال الجمرة الإيمانية، وإلهاب الغَيْرة الدينية، وإثارة قوة المقاومة، والكفاح في نفوس المؤمنين في كل عصر ومصْر، وهذه العناصر كلّها التي تمتاز بها هذه القصة، تضمن لبقاء هذه القصة على مدى الأعصار، وانتشارها في الآفاق، وانتقالها من جيل إلى جيل، ومن عصر إلى عصر، فكيف فهمها المسيحيون الأوَّلون، وكيف رَوَوْها لمن جاء بعدهم؟.

جاء في دائرة المعارف للأخلاق والديانات، ما خلاصته[١]:

---

(١) وقد حكى الأديب المؤرِّخ الإنجليزي الشهير إدوارد جبون (Edward Gibbon) في كتابه الشهير «سقوط روما وانحطاطها» =

«إن قصَّة «النائمين السبعة» من أكثر القصص التي تُروى عن القدِّيسين، متعة عقلية، واشتهاراً في الآفاق، إنَّ عناصر القصة التي تشترك فيها أقدم الكتب كما يلي:

إنَّ إمبراطور «ديسيس» (Decius) يدخل المدينة اليونانية القديمة «أفيسيس»[1] ويجدد فيها تقليد عبادة الأوثان، ويأمر أهل

= (Decline & Fall of the Roman Empire) هذه القصة في أسلوبه الخاص الذي يمتزج فيه التاريخ بالأدب، والرواية بالتعليق والتفسير، ويتجلّى فيه التعصب المسيحي، والتعرُّض للإسلام من غير ضرورة (راجع صفحة ٢٤١ـ٢٤٣) المجلد الثاني:

Modern Library Giant Series (U.S.A) .

(١) ذهب أكثر المفسرين في تفسير سورة الكهف إلى ذلك، كالبيضاوي، والنيسابوري، والآلوسي، وابن كثير، وإليه ذهب أكثر المؤرِّخين، والجغرافيين المسيحيين، واختاره جبون (Gibbon) في كتابه الشهير «انحطاط روما وسقوطها»، اقرأ قصة «النائمين السبعة» Seven Sleepers في هذا الكتاب.

أما تحديدها الجغرافي، فقد جاء في دائرة المعارف للبستاني، أنها إحدى المدن الأيونية الاثنتي عشرة من الأناضول، موقعها على الجانب الجنوبي من نهر قسيطرة، وهي على مسافة ٦٠ كيلو متراً من أزمير، جعلها الرومانيون قاعدة ولاية آسيا الغربية البر، وقنصلية، ومحطّاً =

المدينة والمسيحيين بصفة خاصة بتقديم الذبائح والقرابين لها، وأقلع عدد من المسيحيين عن عقيدتهم النصرانية، وبقي عدد منهم متمسِّكين بديانتهم، محتملين لاضطهاد رجال الحكومة، وتعذيبهم. وهنا يُقَدَّم إلى الإمبراطور سبعة من الشباب (وتقول بعض الروايات أنَّهم كانوا ثمانية) وكانوا مقيمين في السراي، وقد اختلف في أسمائهم، وقد اتُّهموا باعتناق النصرانية سرّاً، وهم يرفضون تقديم القرابين إلى الأوثان، ويمهلهم الإمبراطور لمدة طمعاً في أن يرجعوا إلى صوابهم، ويتوبوا عن النصرانية، ويخرج من المدينة.

وفي خلال هذه المدة يغادر هؤلاء الشباب المدينة، ويأوون إلى كهف في جبل قريب كان يسمَّى بـ Anchilus، ويخرج أحدهم

= لتجارة متَّسعة زاهرة جدّاً، ولكن أعظم فخر لها هو هيكل ديانا ـ المعبودة اليونانية ـ العظيم الذي يُعد من عجائب الدنيا السبع، وكان أكبر الهياكل اليونانية.

وذكر بليكي Blackie في كتابه A Manual of Bible History أن مدينة إفيسيس Ephesus اشتهرت في التاريخ القديم بفلسفتها، وخلاعة أهلها، واستهتارهم، وأصبحت مضرب المثل في الفجور والخلاعة، وكانت وثنيتها مزيجاً من الوثنية الغربية والشرقية.

اسمه Diomedes أو Imblicus متنكِّراً، وفي ثياب متوسِّخة رقيعة إلى البلد، ليتعرَّف الأخبار ويشتري الطعام، ولا يمضي على ذلك كثير حتى يرجع «ديسيس» إلى المدينة، ويأمر بأن يقدّم إليه الشباب، ويخبر Diomedes زملاءه بهذا الأمر السلطاني، فيتناولون الطعام، وقد استولى عليهم الحزن والقلق، ثم يستغرقون في نوم عميق طويل يسلِّطه الله عليهم، ولمَّا لم يهتدِ الإمبراطور إلى هؤلاء الشباب، طلب آباءهم فأبدوا براءتهم عن هذا التهرُّب، وأن تكون لهم يَدٌ في هذه المؤامرة، وأخبروه بأنَّهم متستِّرون في جبل Anchilus، وهنا يأمر الإمبراطور بأن يسدّ مدخل هذا الكهف بحجارة كبيرة، فيموتوا هناك حتف أنوفهم، ويبقوا موؤودين في هذه المغارة، ويكتب مسيحيان، أحدهما Theodore، والآخر Rufinus قصة هؤلاء الشهداء الشباب على لوحة من معدن، ويدفنانها تحت الحجارة التي سدّ بها الغار.

وبعد أن مضى عليهم ثلاث مائة وسبع سنوات في عهد الإمبراطور ثيودوسيس الثاني Theodosius تقوم ثورة يقودها بعض المسيحيين، وتنكر جماعة منهم على رأسهم القس ثيودر Theodore عقيدة بعث الأموات، وإمكان حشر الأجساد، فيفزع ذلك الإمبراطور المسيحي ويشغل باله، وهنا يلهم الله ملاَّكاً اسمه Adolius أن يبني زريبة لغنمه في الميدان الذي يقع فيه هذا الكهف،

ويستخدم البنَّاؤون لبناء هذه الزريبة الحجارة التي سدَّ بها هذا الغار، وهكذا ينكشف هذا الكهف، ويوقظ الله هؤلاء الشباب في هذه الساعة، فيخطر ببالهم أنَّهم ناموا ليلة، ويتواصَوْن بأن يموتوا شهداء على يد «ديسيس» إذا ألجأتهم الضرورة.

ويذهب أحدهم وهو Diomedes إلى المدينة كالعادة، ويقف حائراً أمام الصليب المنقوش على رتاج المدينة، حتى يضطر إلى أن يسأل أحد السابلة، هل هي مدينة أفيسيس حقّاً؟ ويصبح توَّاقاً إلى إخبار زملائه بهذا الانقلاب العظيم، ولكنه يملك عاطفته ويشتري الطعام، ويقدّم ثمنه النقود التي كان يحملها، وهي العُملة التي كان يتعاطاها الناس في عهد ديسيس، ويعتقد صاحب الدكّان وأهل السوق أنَّ الشاب قد عثر على رِكاز قديم، ويريدون أن يكون لهم نصيب فيه، ويهدِّدون الشاب ويخوِّفونه، ويقودونه من بين وسط المدينة وأسواقها، ويتألَّب عليه الناس، ويبحث الشاب في هذا الجمع الحاشد عن رجل يعرفه، فلا يجده، ويستخبره الأسقف حاكم البلد عن شأنه، فيخبره بالقصة بطولها، ويدعوهم إلى أن يرافقوه إلى الكهف، ويزوروا زملاءه الآخرين، فيرتقون قلَّة الجبل، وهناك يجدون لوحتين رصاصيَّتين تصدِّقان قصَّة الشاب، فيدخلون الكهف ويجدون زملاءه أحياء، يَغشى وجوههم النور والسكينة.

ويَنْمى الخبر إلى الإمبراطور Theodosies فيزور الكهف، وهنا يقول له Maximilian أو Achillides أو شاب آخر، إنَّ الله سبحانه وتعالى قد سلَّط عليهم النوم ليبرهن على الحشر والنشر، ثم أيقظهم قبل أن تقوم القيامة، وبعد ذلك مات الشباب موتهم الأخير، وقد بُني هيكل رومي في تذكارهم[١].

أما مكانة هذه القصة التاريخية، فلا يشك كبار المؤرخين والناقدين للأساطير الشائعة في صحَّتها وإمكان وقوعها لشهرتها واستفاضتها في العالم المسيحي، وتناقل الأجيال والكتب لها، يقول «جبون» الذي يجنح دائماً إلى تزييف مثل هذه الأخبار الغريبة:

«إنَّ هذه القصة الغريبة لا يمكن أن تُحمل على مجرَّد خرافة الإغريق ومغالاتهم الدينية، فقد اتَّصلت الروايات الموثوق بها

---

(١) Article «Seven Sleepers», Encyclopaedia of Religion & Ethies.

وقد ساق هذه القصة بطولها ابن جرير الطبري وغيره من المفسِّرين وعلماء المسلمين في كتبهم برواية محمد بن إسحاق. وقد وقعت فيها أوهام لعدم ذيوع المصادر المسيحية في عهدهم، وعدم إحاطتهم بالتاريخ الروماني قبل أن تصبح النصرانية دين الدولة الرسمي. راجع تفسير ابن جرير (على سبيل المثال) ج١٥ ص١٢٣ـ١٢٦، ولذلك عدلنا عن نقلها هنا، واقتصرنا على المصادر المسيحية الأصلية.

وتسلسلت إلى خمسين سنة بعد وقوع هذ المعجزة (المفروضة)، وقد خصَّص قسٌّ سوري وُلِدَ بعد الإمبراطور ثيودوسيس الأصغر بسنتين اسمه James of Sarus رواية من رواياته التي يبلغ عددها إلى مائتين وثلاثين لمدح شبَّان أفيسيس (أصحاب الكهف). وقبل أن ينقضي القرن السادس المسيحي نُقلت قصة أصحاب الكهف هذه من اللغة السورية إلى اللغة اللاتينية بعناية غريغوري Gregory of Tours، وقد حفظت ذكرى أصحاب الكهف في اجتماعات العشاء الرَّباني في الشرق المسيحي بإجلال واحترام، ودُوِّنت أسماؤهم باحترام بالغ في الأعياد الرومية والتقويم الروسي، ولم تنحصر شهرتهم في العالم المسيحي فحسب»(١).

أمَّا عدد الأعوام التي قضوها في المنام، فهو يتراوح بين ثلاث مائة سنة، كما نقله المفسِّرون الإسلاميُّون عن المسيحيين، وثلاث مائة وسبع سنين (كما جاء في مقالة دائرة المعارف للأخلاق والديانات)، أما التفاوت بين ثلاث مائة سنين وثلاث مائة سنين وتسع سنوات كما جاء في القرآن، فقد حمله المفسرون المتقدِّمون

(١) راجع كتاب «سقوط روما وانحطاطها» لجبون ـ المجلد الثاني «النائمون السبعة» صفحة ٢٤١ـ٢٤٣:

Modern Library Giant Series (U.S.A) .

على التفاوت بين التقويم الشمسي والقمري، قال ابن كثير: «وهذا خبر من الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم، منذ أرقدهم إلى أن بعثهم الله، وأعثر عليهم أهلَ ذلك الزمان، وأنَّه كان مقداره ثلاث مائة سنين تزيد تسع سنين بالهلالية، وهي ثلاث مائة سنة بالشمسية، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين، فلهذا قال بعد الثلاث مائة: ﴿وازدادوا تسعاً﴾»[1].

ويستشكل على ما جاء في مقال دائرة المعارف الذي نقلناه، وكتاب (جبون)، على ما شاع على ألسنة الناس، ونقل في أكثر كتب التفسير والتاريخ من أن اختفاء أصحاب الكهف ولجوئهم إلى كهفهم كان في عهد ديسيس الإمبراطور الروماني الذي يسميه المؤرخون العرب وعلماء المسلمين والعامة بدقيانوس، وإنَّه كان نتيجة اضطهاده للعقيدة المسيحية، وقسوته التي اشتهر بها في التاريخ، وأنَّ ظهور أمرهم والعثور عليهم كان في عهد ثيودوسيس الثاني الإمبراطور المسيحي المؤمن، يستشكل على كل هذا أنَّ الفترة بين عهدهما لا تزيد على مائتي سنة على الأكثر، وعلى هذا

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ـ سورة الكهف.

الأساس تهكَّم «إدوارجبون» بالعدد الذي جاء في القرآن في تحديد مدة نومهم. والتجأ بعض المفسرين القدامى، وبعض المفسِّرين العصريين[1]، ـ تفادياً من هذا الإشكال ـ إلى أنَّ ما جاء في القـرآن: ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ [الكهف: ٢٥]، ليس من قول الله تعالى ومما قرره القرآن، بل هو حكاية قول أهل الكتاب، ومن ضمن مِرائهم تخرُّصاتهم، ومتَّصل بالكلام السابق، وهو قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ [الكهف: ٢٢] إلى آخر ما حكي عنهم من الجدال والاختلاف، ونُسب ذلك إلى قتادة، ومُطَرِّف بن عبد الله، وروي فيه قراءة شاذَّة: «وقالوا ولبثوا في كهفهم ثلاث مائةٍ سنين وازدادوا تسعاً» واستدل أهل هذه المقالة بتعقيبه تعالى على ذلك بقوله: ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الكهف: ٢٦]. قالوا: فلو كان ذلك تقريراً من الله لما عقَّب عليه بهذا التفويض إلى علم الله، ونقل هذا التفسير عن ابن عباس أيضاً، ولكن قال العلاَّمة الآلوسي: «ولعلَّ هذا لا يصحُّ عن الحبر رضي الله عنه، فقد صحَّ عنه القول بعدة أصحاب الكهف سبعة وثامنهم كلبهم مع أنَّه تعالى عقَّب القول

(١) كالعلاَّمة جمال الدين القاسمي، في «التفسير القاسمي»، والأستاذ أبي الأعلى المودودي، في «تفهيم القرآن».

بذلك بقوله سبحانه، ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ [الكهف: ٢٢]، ولا فرق بينه وبين قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾ [الكهف: ٢٦]، فلِمَ دلَّ هذا على الرد، ولم يدلَّ ذاك[1]؟.

وردَّه بعض كبار العلماء، وقالوا: إنَّ الذوق العربي السليم يأباه، ولا يتبادر إليه ذهن القارىء، إذا لم يكن مطَّلعاً على هذا التأويل والتفصيل، قال الإمام الرازي: «وأما قوله ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ فهو كلام قد تقدَّم، وقد تخلَّل بينه وبين هذه الآية ما يوجب انقطاع أحدهما عن الآخر، وهو قوله: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا﴾ [الكهف: ٢٢] وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [الكهف: ٢٦]، لا يوجب أنَّ ما قبله حكاية، وذلك لأنَّه تعالى أراد بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [الكهف: ٢٦]، فارجعوا إلى خبر الله دون ما يقوله أهل الكتاب»[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «(إن) بعض المفسرين زعموا أنَّ هذا قول بعض أهل الكتاب، لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾ وليس كذلك فإن الله لم يذكر هذا عن أهل الكتاب، بل ذكره كلاماً

---

(١) روح المعاني، سورة الكهف.

(٢) راجع تفسير الكبير للإمام الرازي، سورة الكهف، الجزء الثالث.

منه تعالى»[1].

إنَّ مصادر هذا الإشكال والتناقض المفروض بين العدد الذي يقرِّره القرآن، وبين العدد الذي يقرِّره «جبون»، والذي يبني على استعراض التاريخ الروماني، هو ما اشتهر من أنَّ حادثة اختفاء الفتية ولجوئهم إلى الكهف قد وقعت في عهد «ديسيس» الذي حكم بين سبتمبر سنة ٢٤٩م ويونيو ٢٥١م، ولعلَّ الذي جعله بطل هذه القصَّة ما اشتهر عنه من قسوة ومن سفك للدماء، واضطهاد عام للمسيحيين، وإجبار على تقديم الذبائح والقرابين الدينية أمام رجال الحكومة المعينين، والأمر بالحصول على الشهادات منهم[2].

ولكن الذي يشكِّك في تعيين هذا الإمبراطور ليكون مسؤولاً

---

(١) «الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح».

(٢) راجع دائرة المعارف البريطانية، مقال «ديسيس Decius» ٧، ص١٥٧، طبع ١٩٦٣م، ولا يخفى على المطَّلع على التاريخ الروماني أن ديسيس لم يكن مخترع هذا المرسوم ولا صاحب الفكرة فيه، بل قد سبقه «تراجان» إلى ذلك بمدة طويلة، وهو الذي أصدر هذا المرسوم وطبَّقه على المملكة، وقد أعدم في عهده بطريق القدس وبطريق حلب لأنهما كانا مسيحيين، راجع:
History of the christion Charch by George H.Dryer.p.65-66.

عن هذه الحادثة، وبطل القصَّة، هو أنَّ مدة حكمه كانت قصيرة جدّاً، لا تبلغ سنتين، وأنَّه قضى أكثر هذه المدة في الحروب مع القوط، وقد مات قتيلاً بأيديهم على شاطىء نهر «الراين Rhine» في فرنسا، ومن المحتمل أن يكون قد وجد فرصة للقيام بجولة في المدن الشرقية اليونانية التابعة لمملكته العظيمة الواسعة، ولم يذكر التاريخ له رحلة إلى بلاد الإغريق، والمملكة الشرقية، وقد جاء في تاريخ المؤرخين للعالم، أنَّ مدة «ديسيس» كانت قصيرة جدّاً وهادئة، ولم يكد يتولَّى الحكم حتى اضطر إلى التوجه إلى «كَال» لقمع ثورة قامت هناك، وانقضت مدة حكمه كلها في الحروب مع القوط»[١]، وقد ذكر المؤرخون أسماء أولئك القادة المسيحيين الذين عاقبهم الإمبراطور على عدم خضوعهم لمرسومه، ولم يذكروا فيه أصحاب الكهف، ولم يكن عدد الذين عوقبوا من المسيحيين كبيراً، فقد ذكر «جبون» نفسه «أنَّ عدد المعاقبين والمعذَّبين لم يتجاوز عشرة رجال وسبع نساء»[٢].

---

(١) اقرأ تفصيل الحروب والمعارك مع القوط، وهلاك الإمبراطور ديسيس بأيديهم في المجلد السادس لتاريخ المؤرخين ص٤١٣ .
(The Historian's History of the world. London, (1908) vlo vl p.413)

(٢) «سقوط روما وانحطاطها» لجبون الجزء الثاني ص٩٨ .

ثم إنَّ حادثة اختفاء رهط من المسيحيين حادثة محلية لم تكن من الأهمية في وقت حدوثها بمكان يلفت إليه أنظار المؤرخين، ويحرص على تدوين تاريخها المؤلفون، بخلاف يقظتهم من هذا النوم الطويل الخارق للعادة، وخروجهم إلى البلد، وانتشار صيتهم في الآفاق، وبعد أن تدوّي الأوساط الدينية بخبرهم، فوقوع هذه الحادثة الثانية، حادثة انتباههم من النوم، وانتشار خبرهم في العالم المسيحي في عهد ثيودوسس من الحوادث المستفيضة المدوِّية في الآفاق الشاغلة للنوادي والمحافل، التي يحرص المؤرخون على تدوينها وتسجيلها، ويتنافس النَّقَلة والرواة في نقلها وحكايتها، فنرجِّح أنَّ حادثة الاضطهاد والاختفاء وقعت في عهد الإمبراطور هادرين[1] (Aelius Hadrinus) Hadrian Publius) الذي حكم

---

(١) حكم هادرين من سنة ١١٧م إلى ١٣٨م، وقد ولي الحكم بعد «تراجان»، وقد أقرَّه المجلس في شهر أغسطس سنة ١١٧ المسيحي، واجتهد في أن يعيد إلى المدن اليونانية نضارتها الزائلة، وأقام سدّاً على الحدود الرومية، وقد قام اليهود في سنة ١٣٢ بثورة قمعها، وظهرت القسوة في قمع هذه الثورة، والتغلب عليها. وأمر بإجلاء اليهود، فكان لا يسمح ليهودي بالدخول في القدس إلا مرَّة واحدة في السنة، ومن ذلك العهد تحقَّق جلاء اليهود في شكل مستمر. (دائرة المعارف لتاريخ العالم ج ـ٢).
وقد قام في سنة ١١٩م بجولة رسمية في آسيا الصغرى، وسوريا، وعقد مجلساً في «سمرنا» دعا إليه ملوك الشرق وأمراءه، وقضى فصل الشتاء في=

طويلاً، ويذكر التاريخ أنَّه قام بجولة في الولايات الشرقية، دامت من ١٢٩م إلى ١٣٤، ولا يلزم أنَّ هذا الاضطهاد قد وقع على يده مباشرة أو بإيعاز منه، ولا يلزم كذلك أن يكون قد علم به وارتضاه، فقد اتَّسعت الإمبراطورية الرومية في ذلك العهد اتِّساعاً كبيراً، وانتشر الولاة والحكَّام في ولاياتها ومدنها، فمن المعقول جدّاً أن يقوم أي حاكم أو والٍ بعملية اضطهاد ديني أو مطاردة دينية وفقاً لاتجاهه الخاص وحماسه الديني، أو تطبيقاً لسياسة الدولة العامة

= «حلب»، وتوجَّه في سنة ١٣٠م إلى الجنوب، وأمر بإنشاء مدينة على أطلال مدينة «قدس»، ثم وصل إلى مصر عن طريق بلاد العرب، واضطر إلى العودة إلى «فلسطين» في سنة ١٣٣م، حيث قاد حركة القضاء على ثورة اليهود، ثم أسند القيادة إلى القائد المعروف جيوليس سيورس (Julius Severus) وعاد إلى «رومية»، ومات الإمبراطر في Baiae في العاشر من تموز سنة ١٣٨م.

«إنَّ حياة هادرين مجموع متناقضات وأضداد» (دائرة المعارف البريطانية ج١١).

وقد جاء في كتاب «تاريخ الكنيسة المسيحية» لصاحبه H.Dryer George «أنَّ هادرين وإن كان يختلف عن الرومان القدماء، «كان تقدمياً» ومتفحصاً في الأمور الدينية ومتشككاً فيها، وإن كان قد أشار بالعدول عن التهمة الاجتماعية، والرمي بالزندقة بالإطلاق، ولكنه بقي محافظاً على سياسة «تراجن» في إجبار «الزنادقة والمارقين» (وجلّهم مسيحيون) على تقديم الذبائح والقرابين للآلهة، والتمسُّك بالديانة الوثنية الرومية» ص- ٦٦.

إزاء الديانة الحديثة وتتخطى في ذلك الحدود، وهذا يقع في كل حكومة وعهد.

فإذا قرَّرنا أنَّ اضطهادهم واختفاءهم كان في أثناء هذه الجولة، وظهورهم في عهد ثيودوسس، لم يكن هناك تفاوت كبير بين عدد المسيحيين وعدد القرآن، ولم يكن هناك أساس لتهكُّم «جبون»، فإنَّ بداية هذه القصة ونهايتها لا تعرفان بالتحديد الزمني الدقيق، وقد اضطربت أقوال المؤرخين السوريين، والمؤرخين الإغريق في تعيين سنة اليقظة والخروج، فالمؤرخون السوريون يزعمون أنَّها ٤٢٥م أو ٤٣٧م، وتقول الروايات الإغريقية، أنَّ الخروج كان في السنة الثامنة والثلاثين من حكم «ثيودوسس» الثاني[١]، معنى ذلك أنها كانت في سنة ٤٤٦م[٢]. ونؤمن بأن القرآن الذي جاء مهيمناً على الكتب السابقة، أحق من التعويل والاعتماد من هذه الروايات المضطربة، والأساطير والمصادر، التي كانت عرضة للتغيير والزيادة والنقص، وقد ظهر الاضطهاد الديني للمسيحية في شكل سافر من عهد نيرون (٦٤م)، واستمرَّ إلى أن كانت المسيحية ديانة

(١) راجع (جبون).
(٢) حكم ثيودوسس من ٤٠٨م إلى ٤٥٠م.

أباطرة الروم بشكل عام، واعتنق قسطنطين النصرانية في القرن الرابع المسيحي، ولا يزال تاريخ المسيحية الأول يكتنفه الشيء الكثير من الغموض لغربتها وضعفها، ويعوزه التدوين التاريخي الذي يعتمد عليه.

وطبيعة اختفاء جماعة قليلة العدد في مدينة صغيرة لم تحتل المكانة الأولى المرموقة في المملكة، تختلف اختلافاً كبيراً عن الظهور الذي اقترن به عناصر الغرابة الكثيرة في عهد ملك يدين بديانتهم، ويقدِّر هذا الحادث كل تقدير في زمن أصبحت فيها عقيدة الحشر والنشر، والحياة بعد الموت موضوع جدال عنيف، ونقاش كبير، واشتدت الحاجة فيه إلى برهان ساطع على إمكانه ووقوعه، فنهاية هذه القصة وتحديد العهد الذي انتبه فيه أصحاب الكهف واشتهر أمرهم، لا يقبل شكّاً ولا مراءً، فقد عرفت الطبيعة البشرية بالحرص على الاحتفاظ بمثل هذه الحوادث الجسام وتتبُّعها، وتتوافر الدواعي الدينية والعاطفية والعقلية على تحقيقها وتسجيلها للأجيال القادمة بخلاف بداية هذه الرواية، ومقدمة هذه الحادثة، والله أعلم بحقيقة الحال.

حكمة اختيار القرآن لهذه القصة:

تمسَّك المفسِّرون في سبب ورود هذه القصة الغريبة في القرآن، بما رواه محمد بن إسحاق عن بَعْث قريش وفد منهم إلى أحبار

يهود بالمدينة وسؤاله إيَّاهم عن أسئلة يختبرون بها صدق النبي ﷺ، واتِّصاله بالسماء، فاختاروا لهم أسئلة فيها سؤال عن أصحاب الكهف(١)، وهذه الرواية إن صحَّت، فليست هي السبب

---

(١) قال ابن جرير: حدَّثنا أبو كريب، قال حدَّثنا يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق، قال حدَّثني شيخ من أهل مصر قدم منذ بضع وأربعين سنة عن عكرمة عن ابن عبَّاس. قال: بعثَتْ قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي مُعَيط إلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهم: سَلوهم عن محمد، وصِفوا لهم صفته، وأخبِروهم بقوله، فإنَّهم أهل الكتاب الأوَّل، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى قدِما المدينة، فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ، ووصفوا لهم أمره وبعض قوله، وقالا: إنَّكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، قال: فقالت لهما أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهنَّ، فإنْ أخبركم بهنَّ فإنَّه نبي مرسَل، فإنْ لم يفعل فالرجل متقوِّل، فَرُوا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأوَّل، ما كان أمرهم، فإنَّه قد كان لهم حديث عجيب! وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبأه؟! وسلوه عن الروح ماهو؟ فإن أخبركم عن ذلك فإنَّه نبي فاتَّبعوه، وإنْ هو لم يخبركم، فهو رجل متقوِّل، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فأقبل النضر وعقبة حتى قدِما مكة على قريش فقالا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمَّد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأل عن أمور، فأخبروهم بها، فجاؤوا رسول الله ﷺ، فقالوا يا محمَّد أخبرنا، فسألوه عما أمروهم به، فقال لهم رسول الله ﷺ: أخبركم غداً بما سئلتم عنه، ولم يستثنِ، فانصرفوا عنه، فمكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدِّث الله إليه في ذلك وحياً، =

الرئيسي، والسبب الوحيد لاختيار القرآن لهذه القصة، من بين قصص الاضطهاد الكثيرة، والقصص الغريبة، التي لا سبيل إلى معرفتها، والإخبار بحقيقتها إلاَّ الوحي، وإنَّ قصص أسباب النزول، وإن أفاض فيها المفسِّرون، وعُني بها العلماء المتقدِّمون العناية الكبيرة، لا تحتلّ المكانة التي أحلَّها فيها كثير من العلماء.

وقد كان في مقاصد الإصلاح والتعليم التي جاء لتحقيقها القرآن، وفي البيئة الفاسدة الموبوءة التي بُعث فيها الرسول ﷺ، ونزل فيها القرآن، وفي طبيعة البشرية التي لا تختلف اختلافاً كثيراً، وفي الأزمان والبيئات التي تتوالى وتتجدَّد، والحوادث التي تتعاقب وتتكرر، وفي الأجيال البشرية التي سيخاطبها القرآن، وتقودها النبوَّة المحمَّدية على اختلاف الأعصار والأمصار، كان في كلٍّ ذلك دواعٍ أقوى وأحقُّ بالاستجابة، وأسباب أظهر وأجدر بالاهتمام من

= ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام حتى أرجف أهل مكَّة وقالوا: وَعَدَنا محمد غداً واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مُكْث الوحي عنه، وشقَّ عليه ما يتكلَّم به أهل مكَّة. ثمَّ جاءه جبرائيل عليه السلام من الله عزَّ وجلَّ بسورة فيها أصحاب الكهف معاتبة إيَّاه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطوَّاف، وقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (ابن جرير الطبري ج ـ١٥، ص١١٨ـ١١٩).

سؤال طائفة، أو امتحان جماعة، ومن قصة يرويها بعض الرواة في سبب نزول آية أو سورة.

ويعجبني في ذلك ما قاله شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي، في كتابه الفريد «الفوز الكبير» في أصول التفسير، قال رحمه الله:

«وعامة المفسِّرين يربطون كلّ آية من آيات المخاصمة، وآيات الأحكام بقصَّة، ويعتقدون أنَّ تلك القصَّة كانت سبب نزولها، والمحقَّق أنَّ الغاية الأساسية من نزول القرآن، هي تهذيب النفوس البشرية، والقضاء على العقائد الباطلة، والأعمال الفاسدة، فوجود العقائد الباطلة في المكلفين سبب مستقل لنزول آيات المخاصمة، ووجود الأعمال الفاسدة وانتشار المظالم فيما بينهم سبب كافٍ لنزول آيات الأحكام، وعدم انتباههم وازدجارهم بما جاء في القرآن من ذكر آلاء الله، وأيام الله، وما يقع عند الموت وبعده، علَّة حقيقية لنزول آيات التذكير. أما القصص الجزئية، والحكايات المعينة التي أتعب المفسِّرون نفوسهم في نقلها، وأطالوا النَّفَس في ذكرها، والحديث عليها، فليس لها دخل كبير، ولا أهمية ذات بال، إلاَّ في بعض الآيات، حيث وقع التعريض فيها لحادثة من الحوادث وجدت في زمنه ﷺ، أو قبل ذلك، ولا يزول ما يعرض

للسامع من التشوُّق عند سماع ذلك التعريض إلا ببسط هذه القصَّة[١].

وقد جاءت هذه القصَّة في أوانها ومكانها، فقد كان المسلمون في مكَّة يواجهون نفس الأوضاع التي واجهها الفتية في أوج الاضطهاد والاستبداد في عهد القياصرة، وكانوا يعيشون في فترة تشبه الفترة التي عاش فيها الفتية المؤمنون قبل أن يغادروا البلد، ويلجؤوا إلى الكهف، ولا تصوير أبلغ من تصوير القرآن، ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [الأنفال: ٦٢]، ودواوين الحديث، وكتب السيرة تفيض بقصص الظلم والقسوة والتعذيب والتنكيل، وتحكي من أخبار محنة بلال، وعمَّار، وخبَّاب، ومصعب، وسُمية وأصحابهم ما تقشعرُّ منه الأبدان، ويشمئزُّ منه الوجدان، ويصوِّر القرآن والسيرة الجو الرهيب الخانق، الذي أحاط بالمسلمين في مكة.. الجو الذي لا تظهر فيه بارقة أمل، ولا يتفتَّح فيه منفذ يدخل منه النور والهواء، فكأنَّهم كانوا بين طِبْقي الرَّحَى، وفي براثن الأسد الضاري، ولا تعبير أدقَّ من التعبير القرآني، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ

(١) منقولاً إلى العربية عن الأصل الفارسي.

ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ﴾[1] [التوبة: ١١٨]، هنالك ينزل الوحي، ويقصّ عليهم القرآن قَصَص الفَرَج بعد الشِّدّة، واليُسْر بعد العُسر، والعزَّة بعد الذُّلّ، ونزول نصر الله من فوق سبع سموات خارقاً للعادة، مكذِّباً لكل قياس، هادماً لكل تجربة، متحدِّياً لكل عقل، كيف أدال الله قلَّة مؤمنة، وحَفْنة من البشر، مجرَّدة من كلِّ قوَّة وسلاح، من الكثرة الكاثرة، الكافرة الفاجرة، الظالمة الغاشمة، المالكة للحول والطول، المستحوذة على القوى والطاقات، والذخائر والوسائل، وكيف أخرج الحيَّ من الميت، والميتَ من الحيّ، وأطلع النور من الظلمة، وجعل من الأعداء القاتلين الذين وَلَغوا في الدماء، وأكلوا الأكباد، حماة حارسين، وآباء مربِّين، وكيف ورث الابن المؤمن الأب الكافر.

شبَهٌ بين الممتحنين في مكَّة وأصحاب الكهف:

فقصَّ الله في هذه الفترة الرهيبة، التي يستولي فيها اليأس والتشاؤم، وتزيغ فيها الأبصار، وتبلغ القلوب الحناجر، قصة يوسف مع إخوته، وقصة موسى مع فرعون، وهي قصة فرد

---

(١) نزلت الآية في الثلاثة الذين خُلِّفوا، وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أميَّة الواقفي، ومرارة بن ربيع. والآية مدنية.

وجماعة، وقصة نبي وأمَّة؛ وقصَّ عليهم قصة أصحاب الكهف مع الملك الجبَّار، والسلطان الطاغية، وهي قصص تختلف عصورها وبيئاتها، وتختلف فيها الأشخاص الذين تدور حولهم القصَّة، وتتَّفق في غاياتها، وتتشابه في نهايتها، وتلتقي على نقطة واحدة، وهي الإرادة القاهرة، التي تنصر المؤمن على الكافر، والبَرَّ على الفاجر، والمظلومَ على الظالم، والضعيف على القويّ، والفقير على الغني، بطرق تحار منها الألباب، وتَشْده بها العقول، يؤمن بها الكافر، ويوقن بها المتشكِّك. فيقول في آخر قصة يوسف: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]، وقال في آخر سورة هود: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

وما أشبه المسلمين في مكَّة بالفتية المؤمنين الذين لجؤوا إلى الكهف فراراً بدينهم من الفتن، فَبَقوا فيه إلى أن قلَّب الله الليل والنهار، وانقرضت الدولة الكافرة المضطهِدة لأهل الإيمان والعقيدة، وطُوي بساطها، وجاء على عرش روما ـ الذي اقترن قروناً طوالاً بالحكم الوثني المشترك، والملك العضوض الفاجر ـ مَنْ يحمي ديانة المسيح ودعوته، ويفتخر بالنسبة إليها، وحمل

رايتها، ويُقدِّر كل من أبلى فيها بلاءً حسناً، ويحيطه بهالة من الإجلال والتكريم، والحب والتعظيم، وكذلك عاش المسلمون في مكة ما عاشوا، متمسِّكين بدينهم، كأنَّهم قابضون على الجمر، واقفون على الرضف، حتى جاء الفَرَج، وأُذِنَ لهم بالهجرة، فرجعوا إلى حِصْنٍ حصين، وكهفٍ متين، هي مدينة يثرب، ولكنَّ الله أراد بهم أكثر مما أراد بالفتية المؤمنين، اللاجئين إلى الكهف في القرن الثاني المسيحي، أراد أن يُظهر بهم دينه على الدين كلِّه.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ المشركون﴾ [التوبة: ٣٣]، وقَرَن البعثة المحمَّدية ـ وهي الرسالة الأخيرة التي خُتمت بها الرسالات ـ ببَعْثة أمّة، فقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ويقول الرسول: «إنَّما بُعثتُم ميسِّرين ولم تُبعَثوا معسِّرين»[1]، فلم يكن يجدر بهذه القلَّة المؤمنة كهف ضيِّق محدود يبقون فيه بعيدين عن الحياة، عاجزين عن كلِّ نشاط، وعليهم تقوم الدعوة ويتوقَّف مستقبل الإنسانية، وهم ملح الأرض ـ في لغة المسيح عليه السلام ـ والبذرة التي ينبت بها الزرع الكريم، الذي فيه حياة

---

(١) رواه الترمذي: عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الإنسانية، وقيام للناس، فهي أكرم على الله من أن تضيع، وتقام بعد اليقظة، وتنطوي في العزلة، فهي تدعو إلى دين الله، وتكافح الباطل وتقاومه، وتجتهد لترفع الظلم عن الإنسانية كلّها، ولتكون كلمة الله هي العليا، ﴿.. حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وقد خرج رائد «أصحاب الكهف» فوجد الناس غير الناس، والمدنية غير المدنية، والدين غير الدين، وجد دينه هو الذي يحكم ويسود، وعقيدته هي التي تُكرَّم وتُشرَّف؛ وكذلك لمَّا خرج المهاجرون من المدينة إلى مكة استقبلتهم بغير الوجه الذي كانت تستقبلهم به، وإذا براية الإسلام تخفق وتعلو، ومفتاح الكعبة بيد الرسول يضعه حيث يشاء، وإذا بالناس يدخلون في دين الله أفواجاً، وإذا بالإسلام هو مصدر كل شرف وكرامة، وإذا بالوثنية هي موضع كل ذلّ وإهانة، وإذا بطُرَداء الأمس هم سادة الناس، وأساتذة الخلق في كلِّ شيء، فما أشبه قصَّة أصحاب الكهف بقصة أهل مكة المؤمنين، والفتية المهاجرين مع فرق يسير، اقتضته طبيعة الإسلام وحاجة الإنسانية.

التاريخ يعيد نفسه مرة بعد مرة:

وقد كتب الله لهذا الدين الخلود، ولهذه الأمة البقاء، والانتشار

في العالم، فاستلزم ذلك أن تمرَّ بجميع المراحل التي مرَّت بها أمم كثيرة في عهود كثيرة، وأن تواجه دعوتها جميع المراحل الطبيعية، التي تحتوي عليها الحياة الإنسانية، من ضعف وقوَّة، وقلَّة وكثرة، وفتح وهزيمة، وموافقة ومعارضة. وكثيراً ما تتعرَّض جماعات تقوم بالدعوة وتستقيم على العقيدة لاضطهاد فظيع، وتعذيب وتنكيل، ونفي وتشريد؛ وقد يكون ذلك في ظلٍّ حكومات كافرة، وقد يكون ذلك في ظلٍّ حكومات تتسمَّى بالإسلام، ويقودها رجال ينطقون بكلمة التوحيد، ويبنون المساجد، ويقيمون الموالد والمهرجانات الدينية ويحتفلون بالأعياد الإسلامية، والشعائر الدينية، ولكنَّهم أحياناً يعتبرون الدعوة الإسلامية، والعقيدة الصحيحة، أكثر خطراً وأعظم ضرراً، على كيانهم ومقاصدهم، من الدعوات الجاهلية، والخرافات الوثنية، والأفكار الهدَّامة، والفلسفات الملحدة، فتعود قصة الكهف في أرض الإسلام من جديد، ويبدأ الصراع بين القلَّة المؤمنة الضعيفة، والكثرة «المنافقة» القوية، وهنالك يجد هؤلاء الفتية روحاً ونوراً في قصَّة أصحاب الكهف: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٣، ١٤].

وقد تشتدُّ هذه الحال، ويضيق الخناق، ويستحيل الجمع بين الحياة والحرية، وبين الإيمان والعقيدة، فلا تبقى للمسلمين حيلة إلاَّ الفرار من المجتمع، واللجوء إلى العزلة، وتلك حالة لا تعرض إلاَّ في أحقاب متطاولة، وأزمات نادرة، ولكن لسان النبوَّة قد أنبأ بذلك، لأنَّ النبوَّة المحمَّدية هي نبوَّة الأزمان كلِّها، وهي المرشدة في الأحوال كلها، فقال رسول الله ﷺ: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً يتبع به شَعَف الجبال ومواقع القطر يفرُّ بدينه من الفِتن»[1]، وهنالك تغيثه سورة الكهف، وتنير له الطريق.

---

(١) رواه البخاري: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

قصّة أصحَاب الكهف في ضوء القرآن

والآن، أستعرض قصة أصحاب الكهف في ضوء القرآن، وفي إطار قَصَص واسع تُلمس فيه الحياة، وتُستوحَى منه العِبَر والعظات.

دولة الوثنية والخلاعة:

في مدينة من المدن الرومية الكبرى ـ إذا شئت سمَّيتها أفسُس أو أفسوس ـ في فجر التاريخ المسيحي، بلغت المادية وما يتبعها من الوثنية السافرة، والأبيقورية الوقحة أوجها وزَهْوها، وقد شهد التاريخ بأنَّ الوثنية تقترن بها الخلاعة والشهوانية دائمًا، كأنَّ بينهما عَهْداً وحِلْفاً، كذلك كان في الهند القديمة كما دلَّت الآثار والحفريات، وكذلك كان في يونان ومصر، وجزيرة العرب في الجاهلية واستهترت الحكومة ورجالها في عبادة الأصنام، وعبادة الشهوات، وعبادة المادة والقوة، وانطلقت موجة عنيفة من الوثنية والشهوانية، جرفت كلَّ القِيَم الروحية والخلقية، وأصبح المجتمع

ـ في هذه العاصمة ـ مجتمعاً مادياً محضاً، لا يدين إلاَّ بالمظاهر والمحسوسات، ولا يؤمن إلاَّ باللذات العاجلة، والمنافع الحاضرة، واستولت الحكومة ـ بطبيعة الحال ـ على جميع وسائل المعيشة والرفاهة في حدود المملكة، وأصبحت مصدر الرخاء والثراء، والمجد والشرف، وأصبح اتِّباع عقيدتها واتجاهها، وتقليد رجالها، القنطرة الوحيدة للوصول إلى الحكم والغنى، والمجد والشرف؛ والْتفَّ حولها «الانتهازيُّون» وأصحاب الطموح من كلِّ جانب، وأصبح الناس طرازاً واحداً أو قطعة واحدة من عُبَّاد الشهوات، وعُشَّاق المناصب والوظائف، وهواة الإقطاعات والولايات.

وألحَّت الحكومة، وأسرفت في تطبيق عقيدتها وفرض اتِّجاهها على أهل البلاد، وتتبَّعت كل من يخالفها في دين الوثنية، واتجاه الإباحيَّة، والتمتُّع بالحياة، فحرمته نعمة الحياة، وسلبته حقوقه المدنية؛ فأصبحت الحياة في هذه البلاد أسلوباً واحداً، وصبغة واحدة من الخرافة والخلاعة، لا يحتمل اختلافاً في اللون، أو تنوعاً في العقيدة والأخلاق، وأصبح الناس على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم وأعمارهم ومدارك عقولهم، نسخة واحدة من كتاب مطبوع في مطبعة متقنة.

ثوّار مؤمنون:

في هذه الدولة الوثنية الجائرة، وفي هذا المجتمع المتهتِّك الخليع، وفي هذا المحيط الضيِّق المُطْبق، وفي هذا الجو القاتم الخانق، وُجِدَ رهط من الناس تسرَّبت إليهم دعوة المسيح - عليه الصلاة والسلام - فصادفت منهم عقولاً واعية وقلوباً خاشعة، وضمائر حيَّة، ففتحتها وملكتها، وشغلت من نفوسهم كل مكان، ومن قلوبهم وتفكيرهم كل جانب، وأصبحت لهم إيماناً وعقيدة، ولذَّة وقوَّة، وبداهة ويقيناً، فأصبحوا لا يعيشون بغيرها، ولا يبيعونها بأكبر ثمن في العالم، ولو كان هذا الثمن نفوسهم وحياتهم.

ومن هنا بدأ الصراع، بدأ ذلك في نفوسهم أوَّلاً، ثم في الخارج ثانياً، وكذلك الصراع يبدأ دائماً في النفوس، لقد اتَّجهوا اتِّجاهاً معارضاً للحكومة والمجتمع، فالحكومة وثنية، لا تقبل إلاَّ الوثنية، والمجتمع خليع لا يرضى إلاَّ بالخلاعة، ولا حياة - فضلاً عن الحكم والغنى - إلا بالحكومة والمجتمع. إن فلسفة الأسباب والمسبِّبات، وإن دراسة المدنية والمجتمع، وإنَّ واقع الحياة؛ كل ذلك يفرض عليهم أن يخضعوا للحكومة والمجتمع، فلا شبع من غير طعام، ولا طعام من غير مال، ولا مال إلاَّ عند الحكومة،

ولا شَرَف ولا سمعة إلاَّ بالجاه، ولا جاه إلاَّ بالوظيفة، ولا وظيفة إلاَّ عند الحكومة، ولا هدوء ولا سلامة إلا بمسايرة الناس وموافقة المجتمع، ولا موافقة إلاَّ باتِّباع العقيدة السائدة والاتِّجاه العام!! هذا هو المنطق المادِّي يقوم على المشاهدة والتجربة، وهذه طبيعة الأشياء.

ولكنَّهم يعارضون هذا المنطق «السليم» كما يسمِّيه أنصاره، ويستوحون إيمانهم وعقيدتهم، فتجاوز نظرتهم النافذة المشهود الموجود، ويتمثَّل أمامهم ما وراء هذا الشهود، فيرون أنَّ وراء هذه الأسباب التي استولت عليها الحكومات واستحوذ عليها المجتمع سبباً آخر، وهو الإرادة الإلهية التي خلقت هذه الأسباب، وهي التي تسيِّرها من وراء الستار، فمن أيَّدته هذه الإرادة القاهرة، لم تؤثِّر فيه هذه الأسباب وأربابها، ولم يحتج إلى أصحابها، وسخَّر الله له الأحوال والأوضاع، وجعلها مطابقة لحاله وحاجته، وهيَّأ له من أمره رشَداً ومرفقاً، وآتاه من لدنه رحمة ونعمة، فلا حاجة إلى الخضوع إلى الأسباب الظاهرة، والاستكانة إلى أصحابه الضعفاء الفقراء، ولا بدَّ من الثبات على العقيدة.

وهنا ينتصر الإيمان على التفكير المادي، ويغلب المنطق الإيماني على المنطق البرهاني، وذلك موضع الاعتبار في القصَّة ومفتاحها: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا

عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف: ١٣-١٥].

حياة من غير عقيدة، أو عقيدة من غير حياة:

ولكن ما هو السبيل إلى البقاء على العقيدة، وقد ضاقت الأرض على أهل الإيمان بما رَحُبَتْ، وجعلت الحكومةُ البلادَ عليهم كفَّة حابل، وسدَّت في وجوههم أبواب الرزق والحياة، فإما حياة من غير عقيدة وخلق، وإما عقيدة من غير حياة وحرية.

وهنالك يسعفهم الإيمان، وينير لهم الطريق، ويقنعهم بأنَّ في أرض الله سَعَة، وفي نصرة الله ثقة، وأنهم ليسوا مضطرين - بعد ما تخلَّوا عن اللذات والمطامع - إلى البقاء في هذه القرية الظالم أهلُها، وجرَى على لسانهم: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦].

منهج الصواب في حياة الانسحاب:

لقد كان لهم أن يهيموا في أرض الله على وجوههم، ويمضي كل أحد منهم لسبيله، أو يأوي كل فرد منهم إلى مغارة أرض، أو

قلَّة جبل، كما فعل المسيحيون في عصر رهبنتهم وانحطاطهم، ولكنَّ الله ألهمهم أن يخرجوا مجتمعين، فارّين بدينهم وعقيدتهم، لاجئين إلى الله، منتظرين منه الفرج القريب، والنصر المبين، وهذا هو منهج الصواب، والطريق الأقوم، كلَّما ضاقت على أهل الإيمان الأرض، وانسدت في وجوههم الأبواب، وأشرف إيمانهم ودينهم على خطر وضياع.

جائزة الإيمان والفتوَّة والفرار إلى الله :

ثمَّ ماذا كان؟ لقد حقَّقوا فيهم صفة الإيمان والفتوَّة، وهما الصفتان الأساسيتان في دستور النصرة الإلهية، والتأييد الربّاني: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ [الكهف: ١٣]، فحقَّق الله لهم جميع مواعيده: وَعَد الزيادة في الهداية، ووعد التثبيت، ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ۝١٣ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [الكهف: ١٣-١٤]، وما أحوج المؤمن المهاجر، الثائر على مجتمعه وبيئته، الثائر على القوَّة القاهرة والحكم المطلق إلى الهداية والتثبيت، وإلى أن يربط الله على قلبه الخفَّاق، ونفسه المضطربة، وقد أنجز الله وعده في هؤلاء الفتية الكرام، فزادهم هدى، وربط على قلوبهم، وأخرج منها الجبن والخوف، والحَيْرة والاضطراب، وملأها شجاعة وسكينة، وقوَّة ويقيناً، وفرحاً وسروراً، ورضاً بالله وأفعاله، وذلك زادُ

المهاجر في سبيل الله، وسلاح المجاهد في سبيل الله، الثائر على عصره، المتمرِّد على بيئته.

ثم ماذا كان؟ لقد خرجوا من البلد، تاركين المدينة وزخارفها وراءهم، نابذين أسباب الحياة، قد غادروا وطنهم العزيز ومساكنهم الكريمة - فالظاهر أنَّهم كانوا من بيوت رفيعة، ومَحْتَدٍ كريم[1] - فكان جزاء ذلك، أن هداهم الله إلى كهف واسع صحِّي[2]، ولا تستطيع المنظَّمات الكبيرة أن تبني مثل هذه الكهوف، والملاجىء الواسعة، النظيفة الصحيَّة، فكان شأنه أن يستفيد من منافع الشمس - وهي النور والدفء - ويَسْلَم من مضارها، وهي الحرارة الزائدة؛ ويدخله الهواء النقي فيضفي على أهله الحياة والنشاط: ﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾[3] [الكهف: ١٧].

---

(١) قال الألوسي في تفسيره: «أنهم كانوا شباناً من أبناء أشراف الروم وعظمائهم»، روح المعاني - ج٥ - ص١١.
وقد مرَّ نقلاً عن دائرة المعارف للأخلاق والديانات: «أنَّهم كانوا من أبناء البلاط وكانوا يسكنون في السرائي».

(٢) في لسان العرب: «الكهف كالمغارة في الجبل إلاّ أنَّه أوسع منها، فإذا صغر فهو غار»، وفي الصحاح: «الكهف كالبيت المنقور في الجبل».

(٣) في روح المعاني: «أنهم كانوا لا تصيبهم الشمس أصلاً فتؤذيهم، وهم في=

وهكذا انقطعت صلتهم عن المدنية الدَّنسة المتعفِّنة وعن أصحابها الغاشمين الفاسقين، واتَّصلت بأسباب الحياة البريئة، والعالم النقي الخارجي، فكانوا يعيشون في عزلة عن العالم، متمتِّعين بخيراته ومنافعه، وليس ذلك إلا جزاء الإيمان الراسخ والجهاد الصادق ، ومن تيسير الله وحده وهدايته، ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ ﴾ [الكهف: ١٧].

لقد حاول الثائرون على نواميس الله وشرائعه، وعلى الطبيعة، وبذلوا جهدهم ومواهبهم، وعلومهم وذكاءهم في الحصول على حياة رخية، صافية هنيئة، وسخَّروا لأنفسهم القوى الكونية، وأخضعوا لهم أسباب الراحة والرخاء، وهناء البال، فحُرموا النتيجة، وثارت عليهم الحياة والطبيعة، وأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وأصبحوا فريسة اكتشافاتهم ووسائلهم وفريسة الأمراض الطريفة والمشاكل الغريبة، والحروب المدمِّرة، ﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف: ١٧].

= وسط الكهف بحيث ينالهم روح الهواء، ولا يؤذيهم كرب الغار، ولا حرُّ الشمس (ج٥ ص٢٠) وفي تفسير الرازي: أنَّ باب الكهف كان مفتوحاً إلى جانب الشمال، فإذا طلعت الشمس كانت على يمين الكهف، وإذا غربت كانت على شماله (ج٥ ص٤٦٦).

الحياة في كهف الإيمان :

ويظهر أنَّهم لم يقضوا حياتهم في هذا الكهف الإيماني في بطانة وتعطُّل، ولم يكونوا هنالك في ظلام وعمىً، ومن غير دستور وهداية، والظاهر أنَّهم أخذوا معهم بعض الصحف والأوراق المكتوبة، ولعلَّها صحائف من التوراة والإنجيل، وأثارة من علوم الأنبياء وتعاليمهم، احتفظوا بها عند خروجهم من المدينة[1]، وليكن ذلك دستور جميع الثائرين على بيئتهم ومجتمعهم، المهاجرين

---

(١) القرآن يسميهم بأصحاب الكهف والرقيم، وقد ذهب المفسِّرون في تفسير الرقيم مذاهب، فمن قائل إنه لوح من حجارة كتبوا فيه قصَّة أصحاب الكهف، وأمرهم أو أسماءهم، ثم وضع على باب الكهف، ومن قائل إنه اسم قرية أو بلد، وقد اختار العلاَّمة الكيلاني في مقالته: «إنه الكتاب المرقوم الذي كان رفيقهم في الكهف» ويؤيِّده ما نقله صاحب روح المعاني عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إنَّه كتاب كان عندهم، فيه الشرع الذي تمسَّكوا به من دين عيسى عليه السلام (ج٥ـ ص١١) وهو مختارنا، وروى ابن جرير بسنده عن ابن زيد قال: «الرقيم: الكتاب، ولذلك الكتاب خبر فلم يخبر الله عن ذلك الكتاب وعما فيه وقرأ: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١ ﴾ (ج١٥ ص١٢٢)»، وقال الإمام البخاري: الرقيم: الكتاب. مرقوم: مكتوب من الرقم. (صحيح البخاري ج٢، كتاب التفسير ـ سورة الكهف).

اللاجئين المضطرين إلى الفرار والعزلة، إذا كان لا بدَّ من الفرار والعزلة.

ولما نَفَدَ زادهم الذي حملوه، سلَّط الله عليهم نوماً هنيئاً، عميقاً طويلاً، لم يحتاجوا معه إلى طعام وشراب؛ ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف: ١١].

تغيير الأوضاع في روما:

وهنا تظهر المعجزة الكبرى من معجزات قصة أصحاب الكهف، ففي مدَّة نومهم واعتزالهم في الكهف تغيَّرت الأوضاع في البلد، في مملكة روما وتوابعها، فانقرضت دولة الوثنية والخلاعة، وطوي رجالها وأصحابها في تقلُّبات الزمان، وقامت على أنقاض هذه الدولة الوثنية الخليعة دولة تؤمن بالله، وبالمسيح(١).

وتنتصر للدين الجديد الذي حاربته الحكومة الماضية طويلاً،

---

(١) كان ذلك في عهد قسطنطين «الكبير» الذي تولَّى الحكم في سنة ٣٠٦م، وقد تنصَّر (وفق الرواية الشائعة، فيشكُّ كثير من الباحثين في إخلاصه وسلامة نيَّته في قبول الدين الجديد، ويردُّون ذلك إلى المصالح السياسية) وهو الذي جعل النصرانية دين الدولة الرسمي، وعقد مجالس عظيمة حضرها كبار الأساقفة والقسوس بتوحيد العقيدة النصرانية، والقضاء على الخلافات والمذاهب المتناحرة، وهو الذي اختطَّ مدينة قسطنطينية في عام ٣٣٠م، التي اشتهرت باسمه وجعلها عاصمة الدولة، ومات في ٣٣٧م.

وطاردت أتباعه ورجاله، وتُجِلُّ كل من انتمى إلى هذا الدين، وترحِّب بكلٍّ من يدين بهذه العقيدة.

وهنالك يُبعث أصحاب الكهف من رقدتهم الطويلة التي استغرقت ثلاثة قرون وزيادة، ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥]؛ ويتساءلون بينهم عن مدَّة هذا النوم، فيختلفون في التقدير والتحديد، ثم يكلون أمره إلى الله، لأنَّه ليس من مهمات الدين والدنيا، ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ [الكهف: ١٩].

وحينئذٍ يشعرون بالجوع، فينتدبون أحدهم ليأتي لهم بطعام زكي[١]، ويرسلونه مع النقود الفضيَّة التي حملوها من مدينتهم، ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ [الكهف: ١٩]، ويوصونه بالاحتراس من فُشوِّ السرِّ وبالتلطُّف، لأنَّهم لا يزالون يعتقدون أنَّ الدولة للأعداء، وأنَّ شرطة الحكومة ورجالات المخابرات بالمرصاد، ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝١٩ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ

---

(١) فسَّر الإمام الرازي قوله تعالى: ﴿أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ بقوله: «أيها أطيب وألذ، وقال: هذه الآية تدل على أنَّ السعي في إمساك الزاد أمر مشروع، وأنَّه لا يبطل التوكُّل».

﴿يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ١٩، ٢٠].

ولقد تسامع أهل البلد بقصة اضطهاد فتية مؤمنين في دولة الوثنيين الفجّار، وسمعوا ما جرى لهم، وكيف غادروا وطنهم واختفَوا عن الأنظار، وانقطع أثرهم، وقد قامت الدولة المسيحية الفتاة، تحيي آثار النصرانية المضطهدة وتجدِّد معالمها، وتحيي ذكرى أبطالها وشهدائها، وتفكِّر في تخليد ذكرهم وبناء تذكارهم، وفي مقدِّمة هؤلاء الأبطال «أصحاب الكهف والرقيم».

طرداء الأمس أبطال اليوم:

وكانت قصة «أصحاب الكهف» حديث البلد، إذ خرج رائدهم متستِّراً، متلطِّفاً خائفاً يترقَّب، يبحث عن طعام لذيذ، ويرجع به سريعاً إلى أصحابه، ويقنع من الغنيمة بالإياب، فإذا هو بُغْيَةَ البلد، وإذا هو وأصحابه من الأبطال الذين تتغنَّى البلاد ـ حكومة وشعباً ـ بمجدهم وجهادهم، وبطولتهم.

يُعثر عليه ـ عن طريق العملة القديمة التي كان يحملها، أو اللهجة التي كان يتكلَّم بها، أو الزي الذي كان يلبسه، فالقرآن لا يُعنى بهذه التفاصيل التي هي موضوع الرواية، لا الهداية ـ ويشيع الخبر في البلد، وأنحاء المملكة، ويصبح الشغل الشاغل للناس، ويُقبِل الناس زرافات ووحدانا إلى هذا الكهف الذي آواهم،

ويسعدون بزيارتهم، ويمسك القرآن ـ على عادته ـ عن ذكر تفاصيل احتفاء الناس بهم، وإجلالهم وتقديرهم لهم، ولكنه يقول في قوَّة وتأكيد: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ ﴾ [الكهف: ٢١]. فقد كان هذا الانقلاب الذي حَدَث في الحكومة والشعب، وعثور الناس عليهم بعد هذه الغيبة الطويلة إنجازاً لوعده في رفع منارهم، وتخليد آثارهم، وقهر عدوّهم، ودليلاً على أنَّ الله يقلِّب الليل والنهار، ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [الحج: ٧].

وهل كان يُرجى أن تزول هذه الدولة القاهرة، وتنهض المسيحية المقهورة، ويخرج أصحاب الكهف بعد هذه المدة الطويلة من كهف يشبه المقبرة الواسعة، فتحيط بهم هالة التقديس والإكبار، وتفسح لهم الدولة ذراعيها، ويبسط لهم البلد أحضانه، ويوطِّىء لهم أكنافه؟! أليس في ذلك عبرة لسادة قريش وعظماء مكَّة، وتسلية للمسلمين المستضعفين؟

ومكثوا ما شاء الله أن يمكثوا، ثم وافاهم الأجل المحتوم، فأصبحوا في محبِّيهم، والمعجبين بهم موضوع خلاف ونزاع، وذهب الناس فيهم مذاهب، وذلك في أسلوب تخليد ذكرهم وبناء تذكارهم، ﴿ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ

بِهِمْۖ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ [الكهف: ٢١][١]. ولم يقتصر الأمر على الاحتفاء بشأنهم في عصرهم، والحرص على تخليد ذكرهم، بل أصبح هؤلاء من رجال التاريخ والديانة، الذين ظلَّ الناس يختلفون فيهم ويتباحثون، وتتكوَّن مذاهب وطوائف، لكلٍّ أنصار، ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٢].

---

(١) قال العلاَّمة الآلوسي في تفسيره: «استدلَّ بالآية على جواز البناء على قبور الصلحاء، واتِّخاذ مسجد عليها، وجواز الصلاة في ذلك وهو قول باطل عاطل، فاسد كاسد، وقد روى الشيخان، والنسائي، عن عائشة رضي الله عنها، ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: «لعن الله تعالى اليهود والنصارى، اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، وأحمد، والشيخان، والنسائي: «إن أولئك شرار الخلق يوم القيامة».

وليس في الآية أكثر من حكاية قول طائفة من الناس، وعزمهم على فعل ذلك، وليست خارجة مخرج المدح لهم، والحض على التأسّي بهم، فمتى لم يثبت أنَّ فيهم معصوماً لا يدلّ فعلهم فضلاً عن عزمهم على مشروعية ما كانوا بصدده، وما يقوِّي قلة الوثوق بفعلهم القول بأنَّ المراد بهم الأمراء والسلاطين، كما روى عن قتادة، (روح المعاني ج٥ـ ص٢١، ٣٢).

انتصار الإيمان على المادية :

وهكذا تنتهي هذه القصة الخالدة الأولى من قصص سورة الكهف الأربع، قصة الصراع بين الإيمان والمادية، أو قصة الصراع بين الاعتماد على الأسباب، وبين الاعتماد على خالق الأسباب، تنتهي بانتصار الإيمان على المادية، وصِدْق الاعتماد على خالق الأسباب.

لقد آثر الفتية المؤمنون الإيمان على المادة، وآثروا الآجل على العاجل، وآثروا أن يعيشوا فقراء غرباء وهم مؤمنون، على أن يعيشوا أغنياء أو أمراء وهم كافرون، وآثروا أن يعيشوا بعيداً عن الوطن والأقارب والأحباب، لا حظَّ لهم في متعة الحياة ولذة العيش وعز الحكومة، على أن يُشرِكوا بالله، ويرضوا شهواتهم، ويتعاونوا على الإثم والعدوان.. لقد فرُّوا من مقتضى النفس إلى مقتضى الروح، ومن مقتضى العقل إلى مقتضى الإيمان، فتحقق أنَّهم كانوا أعمق عقلاً وأبعد نظراً، وأن العاقبة للمتَّقين.. لقد فرُّوا من الأسباب إلى خالق الأسباب، فلم ينتقلوا من هذا العالم، حتى خضعت لهم الأسباب، وخضعت لهم حكومة فروا من خوفها وعقابها بالأمس.

وقصَّة «أصحاب الكهف والرقيم» هي قصة الإيمان والفتوَّة

والثبات، والتضحية والجهاد، التي تتكرر في تاريخ الإنسانية، وفي تاريخ الحق والعقيدة، وبرهان على أنَّ الأسباب خاضعة للإرادة الإلهية، صديقة للإيمان والعمل الصالح؛ فسبيل المؤمن أن يستميل هذه الإرادة بالإيمان والعمل الصالح، ويستحق نصر الله وتأييده.

وقبل أن يبدأ القرآن بالقصة الثانية، وهي قصة صاحب الجنَّتين، يوصي النبي ﷺ، بالتمسُّك بحبل الله، والتمسُّك بالسبب الأكبر الأقوى، أو العروة الوثقى، وهو سبيل الإيمان وسبيل القرآن، ويوصيه بلزوم أولئك المؤمنين الذي سعدوا بالإيمان والمعرفة واليقين، والذكر والدعاء، وإن كان حظُّهم قليلاً من الأسباب، ومن متع الدنيا وزخارفها، ويوصيه بمجانبة أولئك الجُهَّال الغافلين الذين حُرموا الإيمان والمعرفة واليقين، وما يتبع ذلك من الذكر والدعاء، وملكوا مقداراً كبيراً من الأسباب والقوى والخيرات، وإنَّما هي وصية عامة لقرَّاء القرآن وأتباعه، والمؤمنين به، بل هم أحوج إلى تنفيذها والعمل بها، ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

لقد كانت هذه خطَّة أصحاب الكهف وأصحاب الإيمان

والمعرفة في كلِّ عصر، وهي إيثار الإيمان والعمل الصالح، والصلة الروحية بالله على المظاهر والظواهر، والأسباب والقوى، والتمرُّد على المادة وأصحابها، والاستهانة بزخارف الدنيا ومتعها، وهي دعوة سورة الكهف، ودعوة القرآن، ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ١٣١]. وسورة الكهف تدور حول هذه النقطة، وتشير إليها بكل مناسبة.

تقديس المادَّة ورجالها في الحضارة الداجلة:

وقد عارضت الحضارة المادية ـ وصورتها المكبَّرة الواضحة هي المدنية الداجلة العصرية ـ هذه الروح، وهذا الاتِّجاه بخط مستقيم، فقد قامت على تقديس المادة ورجالها، وإجلالهم والخضوع لهم، وقد لهجت فلسفتها وأدبها ـ بجميع أنواعه من شعر ونثر، ورواية وصحافة، وتمثيل وتاريخ ـ بإطراء أصحاب رؤوس الأموال، وأصحاب الملايين وأصحاب النفوذ المادي، والسيطرة السياسية أو الاقتصادية، وذهبت إلى تأليههم، وحثَّت على تقليدهم، والتمثيل بهم.

الغلوّ والتطرُّف سمة هذه الحضارة:

لا أجمل في وصف هذه الحضارة المتهوِّرة، ووصف صاحبها

الذي يتشبَّع بروحها، ويُحْسِن تمثيلها من قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]. وقد أصبح الإسراف والإجحاف، والغلوُّ والتطرُّف سِمةً لهذه الحضارة وشعاراً تُعرف به، ويُعرف به صاحبها؛ إسراف في التكسُّب والإنتاج، وإسراف في التلهِّي والتسلية، وإسراف في البذل، وإسراف في النظريات السياسية، وإسراف في النظريات الاقتصادية، فإمَّا غلوٌّ في الديمقراطية، وإمَّا غلوٌّ في الدكتاتورية، وإما تطرُّف في الشيوعية، وإما تقديس للأعراف والمثل، والنظم والقوانين، التي هي من وضعه أو وضع بني جِنْسه، حتى لا يتخلَّى عنها قيد شعرة، ويرى العدول عنها جريمة تحرم صاحبها كل شرف وتقدير؛ وإما ثورة جامحة هوجاء عليها حتى ينافي في ذلك العقل المستقيم والذوق السليم، والفِطرة التي فُطِر الناس عليها، فيخرج بذلك عن صف الإنسان المتمدِّن إلى صف الوحوش والدواب[1]؛ وإما تطرُّف

---

(١) وقد تجلَّى هذا الاتجاه في حركات الدعوة إلى الحرية الحيوانية والعُري، والاختلاط غير المقيَّد في «أمريكا» و«أوروبا» وتجلَّى أخيراً في الشباب الأوروبي الذي يسميه بعض الكتَّاب بالخنافس Hippies وهي ظاهرة في كل مدنية أصيبت بالتخمة المادية، والضجر الفكري، والقلق النفسي، وظهر ذلك في «يونان» و«رومة»، اقرأ ما جاء في كتاب «الجمهورية» لأفلاطون من تصوير الشاب اليوناني في عهده، واقرأ ترجمته في «ماذا خسر العالم..» ص١٧٧، الطبعة الثامنة.

في الرأسمالية. . لقد كان أمره فُرُطاً في كل ما يختاره ويؤثره، وفي كل ما يدين به ويدعو إليه، أما السداد والقَصْد، والتوسُّط في الأمرين، فهو من أبعد خَلْق الله منه، وأقلُّهم نصيباً من ذلك.

العدل والسداد ميزة هذا الدين وحضارته:

أمَّا الحياة التي تنبثق من تعاليم النبوَّة، فهي الموصوفة بالاعتدال والسداد، ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]. وقد وصف الله هذه الأمة القرآنية بالتوسُّط والاعتدال، فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ ﴾ [البقرة: ١٤٣][١] وكان رسول الله ﷺ المثل الكامل في التوسُّط والاعتدال[٢].

وقد وصف الله دين الإسلام بالاستقامة والاعتدال، والبعد عن الإفراط والتفريط، ونَعَتَه بلفظ «القيّم» و«القِيَم» فقال مخاطباً

---

(١) في المدارك، أي كما جعلنا قبلتكم متوسطة بين المشرق والمغرب، جعلناكم وسطاً بين الغُلوّ والتقصير ص٤٧، وفي الخازن: والمعنى أهل دين وسط بين الغلو والتقصير، ج١، ص١٠٨.

(٢) اقرأ صفته عليه الصلاة والسلام في كتب الحديث والسيرة، واقرأ تعليماته ووصاياه لإيثار التوسُّط والقصد في كلِّ شيء في كتب السنة، وقد قال علي ابن أبي طالب وغيره: «كان معتدل الأمر غير مختلف لا يقصِّر عن الحق ولا يجاوزه» وقال: «ما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما» (جزء الشمائل للترمذي).

نبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١] وقال: ﴿. . . ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ . . .﴾ [التوبة: ٣٦] وقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ . . .﴾ [الروم: ٤٣]، وكذلك وصف كتابه بالقيّم، ونَفَى عنه العوج والزَّيغ، فقال في مفتتح سورة الكهف التي نتكلم عنها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: ١، ٢] وقال: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ٣٥٢]، وقال: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨].

ولا شكَّ أنَّ روح الاستقامة والسَّداد سارية في هذا الدين، متغلغلة في أحشائه، مسيطرة على نظمه وشرائعه، وحضارته وثقافته، وبالعكس من ذلك، فالحضارة المادية، التي ولّدتها أوروبا في عصرها الموتور الثائر على الدين والأخلاق والنظم، فاقدة الاتِّزان من أول يومها، متَّصفة بالغلوِّ والتطرُّف في نظمها ومناهج حياتها، والزَّيغ والعِوَج في فلسفتها وتفكيرها، والتطويل والتهويل في علومها وثقافتها، وإيثار العسير والطويل في جميع اتِّجاهاتها، وفي مثل هذه الحضارة، تفقد الطبائع سلامتها، والعقول استقامتها، والحياة بساطتها وسهولتها والأمم وحدتها وأُلفتَها.

(٢)
قصة صاحب الجنتين

ويبدأ القرآن بقصة صاحب الجنَّتين، وهي قصَّة أكثر وقوعاً في الحياة اليومية والحياة العادية من القصَّة الأولى، فإذا تمثَّلت قصَّة أصحاب الكهف في عقود من السنين، فقصَّة صاحب الجنَّتين تتمثَّل في كلِّ مكان وحين، إنَّها قصَّة رجل حالفته السعادة، وتوفَّرت له أسباب الهناء والرخاء، له جنَّتان من أعناب ـ الثمر الكريم الحبيب ـ محفوفتان بنخل ـ الشجر الكريم الحبيب ـ يتخلَّلهما الزرع الكريم الحبيب، إنَّها غاية السعادة والغبطة في الحياة المتوسِّطة، وإنَّ الحياة المتوسِّطة هي المقياس في أكثر شؤون الدنيا.

ولم تقتصر سعادة السريِّ الثريّ على وجود الجنَّتين فحسب، بل واتته الأسباب وجاءت الجنَّتان بخير حاصل ونتيجة، ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف: ٣٣]. وهكذا تمَّت له السعادة، وتجمَّعت له أسباب الهناء والرخاء.

الطبيعة المادية ، وقِصَر نظرها :

هنالك تثور الطبيعة المادية في هذا الرجل السريّ الثريّ ـ نفس الطبيعة التي تثور في أصحاب الحكومات والولايات، وأصحاب رؤوس الأموال والعقارات، وأصحاب الزعامة والوزارات، وأصحاب الصناعات والاختراعات، وأصحاب البوارج والمدمِّرات ـ تثور هذه الطبيعة التي لا يقهرها الإيمان، ولا تضبطها المعرفة الصحيحة، والتربية الصالحة، فينسب سعادته وجَدَّه إلى علمه ولباقته، وجهوده وذكائه، كما فعل قارون من قبل، فقال: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ ﴾ [القصص : ٧٨] ، ويفاخر صديقاً له لا يعادله في هذه السعادة فيقول في صراحة بل وقاحة : ﴿ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴾ [الكهف : ٣٤] .

ويدخل في مركز رخائه وثرائه، ومركز نفوذه وسلطانه جاهلاً لنفسه، جاهلاً بربِّه، جاهلاً بالأسباب الخفية، والإرادة الإلهية التي تحكم من فوق سبع سموات، وتحول بين الإنسان وملكه، وبين الإنسان وقلبه. . ظالماً لنفسه ظلماً علمياً وعملياً، وخلقياً وعقلياً، فتنطق هذه الطبيعة الماديّة العمياء على لسان صاحبها الجاهل، فيعلن خلوده وخلود جنتيه، ويجحد بالبعث، ويعلن سعادته الدائمة ـ في الدنيا والآخرة، إن كانت آخرة ـ في صَلَف وخَرَق : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ

ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ [الكهف: ٣٥، ٣٦]. ويعتقد أنَّه من الرجال المجدودين السعداء، الذين لا يخونهم الحظ، ولا يَعْثُر بهم الجدّ، ويكونون في كل مكان وزمان في أوج السعادة والسيادة. ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ [الكهف: ٣٦]. ويعتقد أمثال هذا أن لا حاجة إلى الإيمان والعمل الصالح والكدح، إنَّما هي سعادتهم الفطرية، التي تهيىء لهم الهناء والرَّخاء في كلِّ وقت.

التفكير الإيماني:

وكان صديقه قد فتح الله بصيرته للحق والإيمان، وسعد بمعرفة الله وصفاته وأفعاله، وأنه هو المصرّف لهذا الكون، والخالق للأسباب، والمغيِّر للشؤون، فعارضه في مقالته وتفكيره الماديّ، ونبَّهه إلى أصله وحقيقته وبدايته، وهي الحقيقة القاسية التي يتناساها المَجْدُودون المخدوعون، ويفرُّون من تذكرها ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ [الكهف: ٣٧]، وما أشقَّ سماعه على المتكبِّرين الجبَّارين!! وذكر له أنَّه سائر في اتجاه معارض، وهو الاتجاه الإيماني: ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٣٨].

ثمَّ ذكَّره بالحقيقة الأساسية التي تدور حولها سورة الكهف، والوتر الحسَّاس الذي تضرب عليه، وهو أنَّه ليس الشأن في

الأسباب، إنما الشأن في خالق الأسباب ومالكها،وكل ما يراه السري الثري من أسباب السعادة والهناء، ويغتبط بها، ليس من صنع الأسباب وليس من كسب يده وذكائه، إنَّما هو صنع الله الذي أتقن كلَّ شيء، ويلفته ـ في حكمة ورفق ـ إلى الاعتراف بصنع الله وقدرته، وإسداء كلمة الشكر والحمد، ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [الكهف: ٣٩].

روح السورة ومفتاح القصَّة:

و﴿ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [الكهف: ٣٩] هي روح هذه السورة ومفتاح القصة، وقد أوصَى الله تعالى نبيَّه ـ وكل قارىء للقرآن ـ قبل آيات بتفويض الأمر والقوَّة إلى الله تعالى في المستقبل، وفي ما ينويه ويريده في المستقبل، وأن يشترط كل إرادة وعزم بمشيئة الله تعالى، فقال: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤].

وكيف يخضع للأسباب وعبادتها، والمادة وأصحابها، ويؤمن بالنفس وإرادتها، من ينسب الفضل في كل ما حصل، والفضل في كل ما ينوي إلى الله وحده، ويقول: «ماشاء الله لاقوَّة إلا بالله»، ويستثني في كلِّ ما يقصده ويعتمد به، فيقول: «إن شاء الله»، وهاتان

ـ ما شاء الله، وإن شاء الله ـ كلمتان خفيفتان على اللسان يكثر النطق بهما من غير شعور وتعقُّل، ولكنهما كلمتان ثقيلتان عميقتان، زاخرتان بالمعاني، حاسمتان للمادِّية الرعناء، والاعتماد على النفس والإرادة.

اعتماد الحضارة المادية على وسائلها وقواها:

وقد امتازت الحضارة الماديَّة بشدَّة الاعتماد على وسائلها وقواها وطاقاتها، فتعلن حكوماتها تحقُّق مشاريعها[1] العمرانية والاقتصادية، حتى ما يتوقَّف منها على موافقة الطبيعة، واعتدال المواسم والفصول، في المدة المحدودة من غير استثناء وشك، وتعلن أنَّها ستنتج كذا وكذا في كذا وكذا من الأعوام، وتصبح بلادها كافلة لنفسها، مستغنية عن الخارج، وتسخر منها الإرادة الإلٰهيــة، فتصــاب بنقــص مــن الأمــوال والأنفــس والثمــرات، وبالمجاعات والمفاجئات التي لم تكن في الحساب، وتتخلَّف عنها الأمطار في حين أو مكان، وتصاب بالفيضان، والسيل العَرِم في حين أو مكان آخر، فيخطىء التقدير، وتخفق المشاريع.

---

(١) لا يعني ذلك طبعاً أن لا توضع المشروعات، وتتَّسع الدراسات القائمة على وسائل العلم في الإنتاج، وإنّما المهم أن لا تطغينا مظاهر القوة والعلم، فنغفل عن جلال الله الذي خلق الأسباب ومسبباتها.

الإيمان بالإرادة الإلٰهية والاعتماد عليها:

ليست كلمة «إن شاء الله» والوصيَّة بالتكلُّم بها محدودة في الأعمال الفردية التافهة، أو الحوادث اليومية «البسيطة» من مقابلات وزيارات، ومواعيد شخصية وأسفار، بل هي الشاملة للأعمال الاجتماعية الكبيرة، والعزائم والمشاريع العظيمة، التي تؤثِّر في حياة الأمة ومصيرها، فيجب أن يكون كل ذلك ـ مع السعي، والجدّ والجهاد، والأخذ بالتدابير اللازمة، الذي حثَّ عليه القرآن والسنَّة، وجرى عليه النبي ﷺ وأصحابه في حياتهم ـ خاضعاً للإيمان بأنَّ الإرادة الإلهيَّة هي القاضية الحاكمة، وهي الفاصلة الحاسمة، وليس الفرد هو المخاطب الوحيد بقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤]، بل المجتمعات، والحكومات، والمنظَّمات، والمؤسَّسات كلُّها معنية مكلَّفة بها، وهي روح المجتمع الإسلامي الذي يتغلغل فيه الإيمان، وروح الحضارة التي تقوم على أساس الإيمان بالغيب، وهي الفارقة بين الحضارة المادية والحضارة الإيمانية.

وينبّهه صديقه المؤمن إلى أنَّ هذا الاختلاف في الحظوظ والجُدُود، وأنَّ هذا التوزيع ليس أبديَّاً، لا يزول ولا يحول، وأنَّ زمام الأسباب والتصرُّف في العالم لم يفلت من يد خالق الكون، فلا يزال يملكه، والشقي قد يسعد، والسعيد قد يَشقى، والغني

ربَّما يفقر، والفقير ربما يَغْنى، فلا غرابة إذا انقلبت الأوضاع: ﴿ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾ [الكهف: ٣٩ـ٤١]، وهكذا كان!! فطاف على الجنَّتين طائف من الله، وأصبح كل ذلك صعيداً جُرُزاً.

هنالك أفاق الرجل السكران: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۝ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ۝ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ [الكهف: ٤٢ـ٤٤].

إشراك صاحب الجنَّتين:

إنَّ صاحب الجنَّتين لم يكن مشركاً بالله كعامة المشركين، فليس في القرآن ما ينصُّ على ذلك، أو يشير إليه، بل بالعكس يشعر أسلوب القرآن بأنه كان يعرف الله ويؤمن به، فقد قال: ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ [الكهف: ٣٦].

فما كان شركه الذي تأسَّف عليه، وقَرَع عليه سنَّ الندم: ﴿ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾؟! [الكهف: ٤٢] الظاهر الذي لا خفاء فيه، أنَّه كان أشرك بالله الأسباب، فاعتقدها المصرِّفة المؤثِّرة، التي يرجع إليها الفضل في رخائه وثرائه، وازدهار ماله، واعتمد عليها،

ونسي الله، وكفر بتأثيره وتصرُّفه.

وثنية هذا العصر:

وهذا هو الشرك الذي اتَّجهت إليه الحضارة العصرية الماديَّة، فقد اتَّخذت الأسباب الطبيعيّة والماديّة والفنية، وأصحاب الاختصاص فيها، الذين نسميهم «الأخصَّائين» أرباباً وأولياء من دون الله، ووضع الرجل العصري حياته تحت تصرفهم، واعتقد أنَّ بيدهم الحياة والموت، والسعادة والشقاء، لقد أصبحت عبادة الأسباب والماديّات والقوى الكونية، وعبادة الطبيعة، والاعتماد الكليّ على أصحاب الاختصاص، واتخاذهم أرباباً من دون الله وثنيّة جديدة، مضافة إلى الوثنيَّة القديمة التي لا تزال لها آثار وأنصار، ودُعاة وأتباع، وهو نوع من الشِّرك، الذي ينافس الإيمان والعبودية، وهي الوثنية التي تتحدَّاها سورة الكهف وتحاربها وتَنْعي عليها.

يمثِّل القرآن هذه الحياة الدنيا بالزرع الذي لا يلبث أن يكون هشيماً: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

وهذا هو تصوير القرآن لهذه الحياة القصيرة الفانية في مواضع

كثيرة، ففي سورة يونس: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٢٤].

وهكذا يصوِّر القرآن الحياة التي يؤمن بخلودها الماديُّون، ويعكف على عبادتها (النفعيُّون) و(الأبيقوريُّون) ويزيِّف مكاييلها وموازينها التي يعتمد عليها قصار النظر وعُبَّاد الأسباب والمظاهر، ويمجِّدونها، ويعقدون بها الآمال الكثيرة، ويفضِّل عليها المكاييل الإيمانية: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف: ٤٦].

نظرة القرآن إلى الحياة الدنيا:

وهنا نقف وِقفة قصيرة، ونتساءل: ما هي نظرة القرآن إلى الحياة الدنيا؟ ويَحْسُنُ بنا أن نستعرض القرآن في هذا الموضوع، ونستوحيه، فقد اضطربت عقول المسلمين ونظراتهم، وأقوال الباحثين واتِّجاهاتهم في هذه الحياة، وقيمتها ومنزلتها.

إنَّ القرآن يقرِّر ـ بكل وضوح وقوة وصراحة ـ قِصَر هذه الحياة

الدنيا وتفاهتها، وتضاؤلها في جنب الآخرة: فيقول مثلاً ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]. ويقول: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]. ويقول: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

ويقرِّر كذلك في وضوح وقوة أنَّها قنطرة إلى الآخرة، وفرصة للعمل، فيقول: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧] ويقول: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

ويقرِّر أنَّ الآخرة هي خير وأبقى، فيقول: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[الأنعام: ٣٢]. ويقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص: ٦٠].

إذن هو يذمُّ ويشنِّع على من يؤثِر الدنيا ـ هذه الفانية العارضة، السقيمة الناقصة ـ على الآخرة ـ الباقية الخالدة الواسعة، الصافية

من الأكدار، الخالية من الأخطار ـ فيقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس: ٧ - ٨]، ويقول: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٥، ١٦]، ويقول: ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [إبراهيم: ٢، ٣]، ويقول: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٧]، ويقول: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٢٩ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠]، ويقول: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ [الإنسان: ٢٧]، ويقول: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٣٧، ٣٩].

ويمدح من يجمع بين الدنيا والآخرة مع إيثار جانب الآخرة على جانب الدنيا، ومعرفة قيمتها وفضلها، والحرص عليها، فيقول: ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۝٢٠٠ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ

حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠٠، ٢٠١]، ويقول على لسان نبي الله موسى: ﴿ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، ويمدح خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فيقول: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النحل: ١٢٢].

بين الأديان السماوية والفلسفات المادية:

وهنا تتعارض الأديان السماوية، وتعاليم النبوَّة، أو مدرسة النبوة ـ إن صحَّ هذا التعبير ـ مع الفلسفات المادية والتفكير المادي، الذي يلحُّ على أنَّ هذه الحياة هي كل شيء، وهي المنتهى، ويبالغ في تمجيدها وتقديسها، والاحتفاء بها، والحرص على ترفيهها وتحسينها وتزيينها.

وقد تجلَّت هذه النفسية القرآنية، أو النظرة القرآنية إلى الحياة في كلام النبي ﷺ، وكثيراً ما كان يقول: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة»[(١)]، وكان دعاؤه ﷺ: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً ـ وفي رواية: كفافاً»[(٢)].

---

(١) رواه البخاري في كتاب (الرقاق).
(٢) رواه مسلم في كتاب (الزهد).

وعن المُسْتَورد بن شدَّاد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والله ما الدنيا في الآخرة إلاَّ مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليمِّ، فلينظر بمَ يرجِع»[١]، وقد كانت حياته الطيبة مرآة صادقة لهذه العقيدة والنفسيّة. فعن ابن مسعود رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ نام على حصير وقد أَثَّر في جسده، فقال ابن مسعود: يا رسول الله لو أمرتنا أن نبسط لك ونعمل، فقال: «ما لي وللدنيا، وما أنا والدنيا إلاَّ كراكبٍ استظلَّ تحت شجرة ثم راح وتركها»[٢].

ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديث الإيلاء: «فدخلت على رسول الله ﷺ فإذا هو مضطجع على رمال[٣] حصير، ليس بينه وبينه فراش، قد أثَّر الرِّمال بجنبه، متَّكئاً على وسادة من أدَم حَشْوها ليف، فسلَّمت عليه.. (إلى أن قال) فرفعت بصري في بيته فو الله ما رأيت فيه شيئاً يراد البصر غير أُهبة ثلاثة[٤]، فقلت: يا رسول الله أُدْعُ الله فليوسِّع على أمَّتك، فإنَّ فارساً والروم قد وسَّع لهم وأُعطوا الدنيا، وهم لا يعبدون الله؛

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه.

(٣) المراد به: النسج.

(٤) جمع إهاب وهو الجلد.

فجلس النبي ﷺ وكان متَّكئاً، فقال: «أَوَفي هذا أنت يا ابن الخطَّاب؟ إنَّ أولئك قومٌ عُجِّلوا طيباتهم في الحياة الدنيا»[1].

تلاميذ مدرسة النبوَّة وسيرتهم:

وقد انصبغ كل من تلقَّى التربية في هذه المدرسة أو تخرَّج فيها، أو كان تلميذاً من تلاميذها بهذه الصبغة، وسيطرت عليه فكرة الآخرة، وجرت منه مَجْرى الروح والدم، وتغلغلت في أحشائه، فأصبح لا يذهل عن الآخرة ولا يبغي بها بدلاً، ولا يؤثر عليها شيئاً، فيكفيك إذا أردت أن تتمثَّل هذه الروح المسيطرة على تلاميذ هذه المدرسة، أن تقرأ صفة علي بن أبي طالب، وهي صورة ناطقة للطراز الإنساني الذي تخرَّج في هذه المدرسة، ونشأ في أحضان الرسول ﷺ.

عن أبي صالح قال: قال معاوية بن أبي سفيان لضرار بن ضمرة: صف لي عليّاً، فقال: أوَ تعفيني؟ قال: بل صفه، قال: أوَ تعفيني؟ قال: لا أعفيك، قال: أما إذاً فإنَّه والله كان بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصْلاً ويحكم عَدْلاً، ويتفجَّر العلم من جوانبه، وينطق بالحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته، كان ـ والله ـ عزيز الدَّمعة، طويل

(١) البخاري ج ـ ٢ كتاب (النكاح).

الفِكْرة، يقلِّب كفَّه ويخاطب نفسه، ويعجبه من اللباس ما خَشن، ومن الطعام ما جَشُب، كان ـ والله ـ كأحدنا يجيبنا إذا سألناه، ويبتدئنا إذا أتيناه، ويأتينا إذا دعَوْناه، ونحن ـ والله ـ مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلِّمه هيبة، ولا نبتديه لِعِظمه، فإن تبسَّم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، يعظِّم أهل الدين ويحب المساكين، لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عَدْلِه، وأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه، وقد أرْخى الليل سُجوفه وغارت نجومه، وقد مَثُل في محرابه قابضاً على لحيته، يتململ تململ السَّليم، ويبكي بكاء الحزين، وكأنِّي أسمعه وهو يقول: يا دنيا أبي تَعَرَّضْتِ، أم لي تَشَوَّفتِ؟ هَيْهاتَ هَيْهاتَ! غُرِّي غيْري، قد بتَتُّكِ ثلاثاً لا رجعة لي فيكِ، فعُمرك قصير، وعَيْشُكِ حقير، وخَطَرُكِ كبير، آه من قلَّة الزاد، وبُعْد السفر، ووَحْشة الطريق»[١].

وإليك مثال ثانٍ، وهو خطبة رجل من أصحاب النبي ﷺ يُلقيها أمير على عاصمة كبيرة من عواصم الدولة الإسلامية الكبرى:

«عن خالد بن عُمَيْر العدوي، قال: خطبنا عُتْبة بن غزوان ـ وكان أميراً على البصرة ـ فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعْدُ

(١) صفوة الصفوة لابن الجوزي.

فإنَّ الدنيا قد آذنت بصَرْم، وولَّت حذَّاء[1]، ولم يَبْقَ منها إلاَّ صبابة[2]، كصُبابة الإناء يتصابَّها صاحبها، وإنَّكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا بخيرِ ما بحضرتكم، فإنَّه قد ذُكر لنا أنَّ الحَجَر يُلقَى من شفة جهنم فيهوي فيها سبعين عاماً لا يُدركُ لها قعراً، والله لتُملأنَّ، أفعجبتم؟ ولقد ذُكِرَ لنا أنَّ ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة، وليأتينَّ عليها يوم، وهو كظيظ من الزحام، ولقد رأيتني سابع سَبْعة مع رسول الله ﷺ مالنا طعام إلا وَرَق الشجر، حتى قَرِحَتْ أشداقنا، فالتقطتُ بُرْدة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك[3] فاتَّزرت بنصفها واتَّزر سعد بنصفها، فما أصبح اليوم منَّا أحد إلا أصبح أميراً على مِصْر من الأمصار، وإنِّي أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيماً وعند الله صغيراً، وإنَّها لم تكن نبوَّة قط إلاَّ تناسخت، حتى تكون آخر عاقبتها مُلكاً، فستخبرون وتجرِّبون الأمراء بعدنا»[4].

تحرج العقليات وبعض الدعوات من عقيدة الآخرة:

ولا تستطيع العقليَّات والدعوات التي لم تتشبَّع بروح الإيمان، ولم تتلقَّ التوجيه والتربية من مدرسة الرسول ﷺ مباشرة أن تهضم

---

(١) أي مسرعة الانقطاع.
(٢) البقية اليسيرة من الشراب، تبقى في أسفل الإناء.
(٣) هو: سعد بن أبي وقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة.
(٤) مسلم ج ـ ٢، كتاب (الزهد).

هذه الفكرة أو العقيدة، أو الاتِّجاه ولا تسيغه، ولا تزال في صراع منها أو في حرج من ذلك، وتحاول الفرار منه أو تعليله بأنَّه كان في عصر خاص، وفي بيئة خاصة، وبظروف وأسباب خاصة، ولكن الذي لا غموض فيه أنَّ القرآن وسيرة الرسول، والحديث النبوي ممتلىء بهذه الروح، وأنَّ هذا هو المزاج الإسلامي، أو النفسية الإسلامية، التي تتكوَّن تحت تأثير التربية الإسلامية النبويَّة، وكلَّما استطاع القرآن، وكلَّما استطاعت السيرة النبويَّة، أن تعمل عملها بحُرِّية وتنشىء جيلاً خاصاً يخلق في الإسلام خلقاً جديداً، ولم تساوره العوامل الأجنبية، كان ذلك مزاجه أو طبيعته، أو نفسيته، زُهْدٌ في الدنيا وزخارفها وفضولها، وقناعة بالقَدَر الكافي، واهتمام بالآخرة وما ينفع فيها، وحنين إلى لقاء الرَّب، وإيثار ما عند الله على ما في هذه الحياة، واستقبال للموت على الإيمان وفي سبيل الله، وقد تفيض على شَفَة هذا الطراز المؤمن كلمة السابقين من أصحاب الرسول ﷺ: «غداً ألقى الأحبَّة، محمداً وحِزْبه»[١].

اختلاف في منهج الدعوات النبوية والدعوات الإصلاحية:

وقد تفي بعض الدعوات الإسلامية بعقيدة الإيمان بالآخرة، وتشرحها شرحاً جميلاً، وتذكر ـ في توسُّع وبلاغة ـ حكمتها

---

(١) من قول سيدنا بلال بن رباح الحبشي رضي الله عنه ـ الغزالي في الإحياء عن ابن أبي الدنيا.

وتأثيرها في الحياة، وأهميتها في النظام الخلقي، ولكن القارىء الذكي يلاحظ أنَّه إيمان بالآخرة كضرورة خلقية، وكحاجة إصلاحية لا يقوم بغيرها مجتمع فاضل، ومدنية صالحة، فَضْلاً عن المجتمع الإسلامي، وهذا وإن كان يستحق التقدير والإعجاب، ولكنه يختلف عن منهج الأنبياء وسيرتهم، ومنهج خلفائهم اختلافاً واضحاً، والفَرْق بينهما، أنَّ الأول ـ منهج الأنبياء ـ إيمان ووجدان، وشعور وعاطفة، وعقيدة تملك على الإنسان مشاعره، وتفكيره، وتصرُّفاته؛ والثاني اعتراف وتقدير، وقانون مرسوم.. وأنَّ الأوَّلين يتكلَّمون عن «الآخرة» باندفاع والتذاذ، ويدعون إليها بحماسة وقوَّة، والآخرون يتكلَّمون عنها بقدر الضرورة الخلقية، أو الحاجة الاجتماعية، وبدافع من الإصلاح والتنظيم الخلقي؛ وشتَّان ما بين الوجدان والعاطفة، وبين الخضوع للمنطق والمصالح الاجتماعية.

من عوامل القوَّة والإقدام:

ولكن هذا الإيمان العميق القوي بالآخرة وإيثارها على الدنيا، والزهد في زخارف الحياة وفضول المعيشة، لم يحمل أصحابه على الاعتزال عن قيادة العالم وتوجيه الإنسانية، والعيش في عزلة عن الحياة، ولم يحملهم على رفض أسباب المعيشة، والقعود عن الكفاح للحق والخير، ولم يكن عاملاً من عوامل الضعف

والاستسلام ـ كما شوهد ذلك في بعض القرون المتأخِّرة ـ بل كان عاملاً من عوامل القوَّة والإقدام، والتمرُّد على قوى الشر، ومن أعظم أسباب الشجاعة، والقوَّة والانتصار، وقد كان أشجع الناس وأنشطهم في الكفاح للحق، وأعظمهم نصيباً في الجهاد والفتح الإسلامي، أزهدهم في هذه الحياة الدنيا، وأحرصهم على الآخرة، وأقواهم إيماناً بها، وأعظمهم شوقاً إلى لقاء الرب والشهادة في سبيل الله، وهذه طبيعة هذه العقيدة، فإنَّها تبعث في صاحبها الشجاعة والنَّجدة والإقدام، والاستهانة بالحياة والتغلُّب على الشهوات، ولا شكَّ أنَّ الإسلام يدين لهذه العقيدة في انتشاره وانتصاره وفتوحه.

لا صلة بين هذه العقيدة والرهبانية:

إذن ليست هذه العقيدة «الإيمان بالآخرة» وهذه النظرة القرآنية إلى هذه الحياة الدنيا في شيء من «الرهبانية» الممقوتة، التي ينكر عليها القرآن، ويكفر بها الإسلام، والتي ظهرت في العالم الإسلامي بعد ضعف التعاليم الإسلامية، وبعد القرون المشهود لها بالخير، وبتأثير النزعات العَجَميَّة، والفلسفات «الأجنبية» المسيحية والبوذية، والبرهمية، والأفلاطونية الجديدة.. إنَّها عقيدة تقوم على إيثار الآخرة على الدنيا من غير تخريبٍ لها،

وإنكارٍ لقيمتها الصحيحة، وعلى الكفاح في سبيل الآخرة، وفي سبيل الحق والخير والتغلب على الشهوات الفانية في سبيل البقاء والخلود، وابتغاء رضوان الله.

ولا شكَّ أنَّ المسلمين لم يضعفوا إلاَّ بضعف هذه العقيدة، وأن الجيل الحاضر منهم الذي ـ أصبح فريسة أهوائه وشهواته ـ في حاجة ملحَّة إلى تجديد هذه العقيدة وإثارتها في كثير من الناس، وإعادتها من جديد في كثير منهم، وأنَّ المسلمين لا يستقيم ميزانهم، ولا يكمل إيمانهم حتى ينظروا إلى هذه الحياة بمنظار القرآن، وهو الذي يأباه التفكير المادي، وتعارضه الفلسفات المادية التي تعبد الحياة عبادة، وتهيم بشهواتها ولذَّاتها، وتقتصر على ترفيهها وتوسيعها، وتكفر بما وراءها.

وقد تكفَّلت سورة الكهف الردَّ على هذا التفكير، وعلى هذه العقيدة وزعمائها، وألحَّت على تصوير هذه الحياة الدنيا التصوير الصحيح المطابق، وإن لم يُرضِ كثيراً من الناس.

(٣)

قصّة موسى وَالخضر

ونبدأ بالقصَّة الثالثة: قصة موسى والخضر، إنَّها قصَّة هذه الحياة، وقصة هذا الكون، الذي نعيش فيه، إنَّها قصة تثبت في صورة عملية، واضحة رائعة، أنَّ وراء المعلومات والمكشوفات في هذا العالم، وفي هذه الحياة مجهولات كثيرة، وأنَّ ما يجهله الإنسان ـ وأعظم إنسان في عصره ـ أكثر مما يعلمه، وأنَّه دائماً يبني حكمه على ما يشاهده، ويشعر به، ولذلك يخطىء كثيراً، ويتعثَّر كثيراً، وأنَّه لو انكشفت له حقائق الحياة، وبواطن الأمور وعواقبها، لتغيَّر حكمه كثيراً، ونَقَضَ ما أبرم، وتثبت أنه لا ثقة بأحكامه وأقضيته، وميوله وانطباعاته، وأنْ لا إحاطة بهذا الكون الواسع، ولا يصح الإسراع في الحكم، والإلحاح على سوانح الآراء، فإنَّ الحياة غامضة ملتوية، وأنَّ الكون واسع فسيح، وكثيراً ما يختلف الباطن عن الظاهر، والآخر عن الأوَّل، وأنَّ في هذه الحياة ألغازاً، لم يستطع الإنسان ـ على ذكائه وعلمه وحرصه ـ أن

يحلّها، وأنَّ في هذا الكون عُقَداً وغوامض لم يستطع العلم البشري مهما اتَّسع وارتفع أن يكشفها، وأنَّ حياتنا اليومية العامة مليئة بالأخطاء الفاحشة، والأحكام السريعة، والخطوات المتهوِّرة، والآراء المرتجلة، وأنَّه لو أُسندت إليه إدارة هذا العالم الفسيح ومُنِح الحرية التامَّة، والتصرُّف المطلق، لأفسد العالم، وأهلك الحرث والنَّسْل، لأنَّ نظره قاصر، وعمله محدود، وقد خُلق من عَجَل، وفطر على السرعة وقلَّة البصر.

بين موسى والخضر:

لقد اختار الله لتقرير هذه الحقيقة العظيمة ـ التي هي أساس الأديان أو الإيمان بالغيب ـ أعظم شخصية في عصره، والذي أوتي علماً كثيراً، وخيراً كثيراً، هو موسى عليه الصلاة والسلام أحد أولي العزم من الرسل، «قام خطيباً في بني إسرائيل، فسئل أيُّ الناس أعلم، قال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يَرُدَّ العلم إليه، فأوحى الله إليه أنَّ عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك»[1].

تصرُّفات غريبة:

وتبدأ رحلته مع الرجل الذي آتاه الله من عنده رحمة، وعلَّمه من

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري ج ـ٢، «كتاب التفسير».

لَدُنْه علماً، فيصطدم علمه وفهمه بالحقيقة الراهنة، ويتعارض حكمه ورأيه واتِّجاهه ـ وهو الاتِّجاه الذي يقرِّره الظاهر ـ مع واقع الأمر الذي يجهله، ثلاث مرَّات: إنَّ الخضر يخرق السفينة التي حملتهما، وأركبهما صاحبهما من غير نَوْل[1]، ولكن الخضر يكافىء يده بضدِّها ويتسبَّب ـ على ما كان يظهر لموسى ـ في غرق ركابها الوادعين!! ويقتل غلاماً زكيّاً لم يسىء إليهما، ولم يسىء أبواه، وبالعكس من ذلك يقيم جداراً يريد أن ينقضَّ من غير أُجرة يتقاضاها، وذلك في قرية لم يضيّفهما أهلها، ولم يعرفوا حقَّهما، هذه كلُّها تصرُّفات غريبة من الخضر تثير في موسى الاستغراب والدَّهشة، وتحمله على الإنكار والسؤال مرة بعد مرة.

فقد كان من حقِّ السفينة التي حملتهما أن يحتفظ بها ويحرص عليها، وقد كان من حق صاحب السفينة الذي أسدى إليهما المعروف أن ينصح له ويعرف له الفضل، وقد كان من حقِّ الغلام الزكي الوسيم أن يُحَبَّ ويُحْرَس، وقد كان من حقِّ القرية التي تنكَّرت لهما وجفتهما، وقسا عليهما أهلها، وشحُّوا بفُضُول طعامهم وأزوادهم، أن لا يُحْسن إليهم، ولا يُحرص على أموالهم، ولكن الخضر يعاكس المعقول، المعروف المنتظر،

---

(١) أجرة الركوب.

ويتَّخذ في جميع هذه القضايا الثلاث موقفاً لا يقرُّه العقل، ولا يؤيِّده المنطق، ولا يسيغه الذوق، ولا يملك موسى نفسه ـ وهو المؤمن الغيور والنبي المرسل ـ أمام هذه التصرفات الغريبة، فينسى وعده، ويسرع إلى الإنكار والتساؤل، ويقول: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤].

ما أعجب الحقائق إذا ظهرت!!:

ويؤجل الخضر الإجابة عن أسئلة موسى وإقناعه، ويمضي في خِطَّته بتؤدة وأناة، حتى تنتهي هذه الرحلة إلى غايتها المقدَّرة، فيكشف القناع عن هذه القضايا الثلاث، التي كانت موضع دهشة واستغراب من موسى ـ ومن كل من يقرأ هذه القصة في القرآن ـ مرة واحدة، فيتجلَّى أنَّ الخضِر كان مصيباً محسناً، حكيماً في تصرُّفاته الثلاثة، وأنَّه لم يكن مسيئاً في موضع إحسان، ولا محسناً في موضع إساءة، وقد أحسن صاحب السفينة بخرْقها إذ حفظها من الاغتصاب، فقد كان وراءها ملك يأخذ كل سفينة ـ صالحة سليمة ـ غَصْباً، فكافأه بذلك على إحسانه ومعروفه، وقد أحسن إلى أبوي الغلام بقتله إذ كان هذا الغلام فتنة لهما، كان يخْشى أن يرهقهما طُغياناً وكُفراً، فرأى أنَّ بكاء ساعة أفضل من بكاء طول الحياة وبعد الحياة، ورأى أنَّ الغلام عنه عوض، ولا عوض عن

الدين والعافية، ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۝٨٠ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ [الكهف: ٨٠، ٨١].

وقد أصلح الجدار وأقامه، لأنَّه كان ليتيمين من أبوين صالحين، وكان تحته كَنْزٌ لهما لو تهدَّم وانقضَّ هذا الجدار لانكشف هذا الكنز الدفين، واختطفه السُّرَّاق والناهبون، وبقي الغلامان من غير مال ولا رصيد، وهكذا ظهر أنَّ صلاح العمل ينفع في الحياة وبعد الممات، وأنَّ الله لم يُرِدْ أن يضيِّع أولاد الرجل الصالح، فكيف يضيع الرجل الصالح، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٠]، ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ [آل عمران: ١٩٥]. وأنَّ البذور الصالحة تظهر نتيجتها، كما أنَّ البذور الفاسدة تظهر نتيجتها: ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٨٢].

العلم البشري لم يبلغ الكمال والغاية:

ما أعجب الحقائق إذا ظهرت!! وما أبعد الشُّقَّة بين الصورة

والحقيقة، والظاهر والباطن، وما أعقد هذه الحياة، وما أغمض هذا الكون، وما أكثر ألغاز الحياة، وما أجرأ الإنسان في ادِّعائه أنَّه أحاط بكلِّ شيءٍ علماً، ووصل إلى الحقيقة في كلِّ قضيَّة!! ما أبعد الخَضِر عن الصواب، وسبيل الرشاد في أوائل الأمور، وما أقربه إليه وما أرشده في عواقب الأمور!! لقد تحقَّق أنَّ هذه الحياة لا تزال تطلع بكلِّ جديد، وتهجم بكلِّ غريب، وتحقق أنَّ العلم البشري لم ينتهِ إلى الحد الأخير، ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِى عِلۡمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

تحدٍّ للتفكير المادي:

إنَّ هذه القصَّة وما تشتمل عليه من روح ومغزى، تتحدَّى التفكير المادي الذي يلحُّ على أنَّ الحياة هي التي فهمها الإنسان، وعلى أنَّ هذا الكون هو الذي أحاط به علماً، وأن ليست الحقيقة إلاَّ ما تتراءى للعيون، وأنَّ الظواهر هي التي يصحُّ عليها الحُكْم، وأنَّ الإنسان يستحق أن تُسنَد إليه إدارة هذا العالم، ويخوّل حق التشريع، فقد اكتمل عقلاً وعلماً ودراسة، وبلغ إلى أغوار الحقيقة، وأعماق العلم، وحقائق الكون.

لقد قامت الفلسفات الماديّة على هذا الأساس، وقد قامت الحضارة العصرية على هذا التفكير والعقيدة؛ وسورة الكهف

ـ بعامة محتوياتها ومختلف آياتها ـ وقصة موسى والخضر بصفة خاصة تنقض هذا الأساس، وتهدم هذا البناء، وتنتهي القصَّة بقول الخضر لموسى: ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٨٢]، والتأويل في اصطلاح القرآن هو الحقيقة[١] . . وهكذا يتعجَّل الإنسان وينكر ويخطىء حتى تتجلَّى له الحقيقة، ويأتي التأويل.

---

(١) راجع تفسير سورة الإخلاص لشيخ الإسلام ابن تيمية.



(٤)
قصة ذي القرنين

القصة الرابعة وهي الأخيرة: قصة رجل جمع بين الإيمان والصلاح، والقوَّة الفائقة، وتسخير القوى والطاقات المهيَّأة للإنسان، واستخدام الوسائل الموجودة في عصره، فاستخدم كلّ ذلك - بعكس الطُّغاة المفسدين، والفاتحين الظالمين - في صالح الإنسان، وفي خدمة البشرية، وبناء المدينة الصالحة.

* * *

اختلف المفسِّرون في شخصية هذا الرجل، والقول الشائع المشهور، أنه الإسكندر المقدوني، وهو القول الذي انتصر له الإمام الرازي، وذهب إليه عامة علماء الإسلام، ولكنه قول لا وجه له، لأنَّ الإسكندر المقدوني لا تتحقَّق فيه الصفات التي ذكرها القرآن في وصف ذي القرنين، من اتِّصافه بالإيمان بالله وخشيته، والعدل والرأفة بالمفتوحين، وبناء السد العظيم، وأرجِّح أنَّ هذا القول نشأ من عدم الاطلاع على تاريخ الإسكندر وسيرته في

الحروب، وذهب بعض الفضلاء المعاصرين[1] إلى أنَّه الشخص

---

(١) أشهرهم المرحوم مولانا أبو الكلام آزاد، الزعيم المسلم، والكاتب الإسلامي، ووزير المعارف سابقاً في الجمهورية الهندية، له بحث طويل في هذا الموضوع، دعَّمه بالوثائق التاريخية، وشواهد من كتب اليهود في المجلَّد الثاني من كتاب «ترجمان القرآن» في تفسير سورة الكهف، وهنا خلاصة للقارىء العربي باختصار كبير:

«ظهر سائرس في سنة ٥٥٩ق.م. وقد جمع بين مملكتين فارسيتين عظيمتين، كانتا قد انفصلتا منذ زمان، وهما (ميديا) الجزء الشمالي الذي قد يعبِّر عنه المؤرخون العرب بـ «ماهات»، وفارس الجزء الجنوبي، فكوَّن منها إمبراطورية فارسية عظمى، ثم امتدت فتوحه ومغامراته التي اتسمت بالعدل والكرم، والانتصار للضعيف المظلوم، فلم ينقضِ اثنا عشر عاماً حتى خضعت له البلاد والدول ما بين البحر الأسود إلى باختر Bactria، وقد ثبت تاريخياً أنه غزا الغرب مرة، فأوغل فيه إلى غرب آسيا الصغرى وفتح دولة ليديا التي كانت عاصمتها ساردس Sardis حتى وصل إلى البحر في أقصى الغرب، فوجده يموج، وتراءت له الشمس تغرب فيه، فتوقف هناك لعدم وجود البوارج الحربية، ولا يستغرب إذا كان قد وصل إلى ساحل من سواحل بحر إيجه Agean Ses الواقع في جوار «سمرنا» والبحر يتراءى هناك بحيرة، وقد تمثلت له الشمس في الأصيل تغيب في الوحل الذي نشأ على ساحلها، وهو الذي يصوره القرآن بقوله: ﴿وجدها تغرب في عين حمئة﴾.

وغزا ثانية الشرق، فوصل في هذه الغزوة إلى مكران وبلخ، وأخضع القبائل الهمجية التي ليست لها وقاية من الشمس لبعدها من المدنية، «وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً»، ثم ذهب إلى بابل=

الذي يسمِّيه اليونان «سائرس Syrus »، وتسمية اليهود «خورس»، ويذكره المؤرخون العرب بـ«كيخسرو».

ونحن نوافق على ما كتبه الأستاذ الشهيد سيد قطب في هذا المقام، ويَحْسُن بنا أن ننقله حرفياً، قال رحمه الله: «إن النص لا يذكر شيئاً عن شخصية ذي القرنين، ولا عن زمانه أو مكانه، وهذه هي السِّمات المطَّردة في قَصصَ القرآن، فالتسجيل التاريخي

= العاصمة المنيعة، فأنقذ اليهود «بني اسرائيل» من الذل والأسر، والاضطهاد الذي سلَّطه عليهم ملك بابل «بخت نصر» فأصبح بذلك منقذ اليهود.

ولهجوا بذكره والثناء عليه، والتساؤل عنه، وبذلك حقق نبوءات بني إسرائيل الواردة في التوراة.

وكانت له غزوة ثالثة في الشمال، وقد ترك بحر خزر Caspian Sea عن يمينه، حتى وصل إلى جبال القفقاس، فوجد فجوة واقعة في هذه الجبال كان يدخل منها يأجوج ومأجوج ويعيثون في البلاد، وهنا أقام السد، وقد مات سائرس سنة ٥٢٩ ق. م. فوجد في سنة ١٨٣٨م تمثال من رخام في أنقاض اصطخر Passar Cadae ظهر في رأسه قرنان مثل قرني الكبش، يمثلان مملكتي ميديا وفارس اللتين جمع بينهما سائرس، وبذلك سمي ذا القرنين، وقد شهد المؤرخون العصريون بكرم سائرس. وشخصيته العادلة الفاضلة. ومن أراد التوسع في ذلك فليقرأ مقالة البروفسور B.Grundi راجع المجلد الثاني من Universal History. of the world لمؤلفه «J.A.Hammerton».

ليس هو المقصود، إنما المقصود هو العِبْرة المستفادة من القصة، والعبرة تتحقق بدون حاجة إلى تحديد الزمان والمكان في أغلب الأحيان.

والتاريخ المدوَّن يعرف ملكاً اسمه الإسكندر ذو القرنين، ومن المقطوع به، أنه ليس ذا القرنين المذكور في القرآن، فالإسكندر الإغريقي كان وثنياً، وهذا الذي يتحدَّث عنه القرآن مؤمن بالله، موحِّد معتقد بالبعث والآخرة.

ويقول أبو الريحان البيروني المنجِّم في كتاب (الآثار الباقية عن القرون الخالية) : «إن ذا القرنين المذكور في القرآن، كان من حِمْير، مستدلاً باسمه، فملوك حِمْير كانوا يلقبون بذي، كذي نواس، وذي نيرن، وكان اسمه أبو بكر ابن إفريقش، وأنه رحل بجيوشه إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط، فمر بتونس، ومراكش، وغيرهما، وبنى مدينة إفريقية، فسمِّيت القارة كلها باسمه، وسمي ذا القرنين لأنه بلغ قرني الشمس».

وقد يكون هذا القول صحيحاً، ولكننا لا نملك وسائل تمحيصه، ذلك أنه لا يمكن البحث في التاريخ المدوّن عن ذي القرنين، الذي يقص القرآن طرفاً من سيرته، شأنه شأن كثير من القصص الوارد في القرآن كقصص قوم نوح وقوم هود، وقوم صالح

وغيرهم، فالتاريخ مولود حديث العهد جداً بالقياس إلى عمر البشرية، وقد جرت قبل هذا التاريخ المدون أحداث كثيرة، لا يَعْرف عنها شيئاً، فليس هو الذي يُسْتَفْتى فيها.

ولو قد سلمت التوراة من التحريف والزيادات، لكانت مرجعاً يعتمد عليه في شيء من تلك الأحداث، ولكن التوراة أُحيطت بالأساطير التي لا شكَّ في كونها أساطير، وشُحنت كذلك بالروايات التي لا شك في أنها مزيدة على الأصل الموحَى به من الله، فلم تعد التوراة مصدراً مستيقناً لما ورد فيها من القصص التاريخي.

وإذن فلم يَبْقَ إلاّ القرآن، الذي حُفظ من التحريف والتبديل، هو المصدر الوحيد لما ورد فيه من القصص التاريخي، ومن البديهي أنه لا تجوز محاكمة القرآن الكريم إلى التاريخ لسببين واضحين:

أولهما: أن التاريخ مولود حديث العهد، فاتته أحداث لا تحصى في تاريخ البشرية لم يعلم عنها شيئاً، والقرآن يروي هذه الأحداث التي ليس لدى التاريخ علم عنها!!

وثانيهما: أن التاريخ ـ وإن وَعَى بعض هذه الأحداث ـ هو عمل من أعمال البشر القاصرة، يصيبه ما يصيب جميع أعمال البشر من القصور والخطأ والتحريف، ونحن نشهد في زماننا هذا ـ الذي

تيسرت فيه أسباب الاتّصال ووسائل الفحص ـ أن الخبر الواحد، أو الحادث الواحد، يُرْوى على أوجه شتى، وينظر إليه من زوايا مختلفة، و يفسَّر تفسيرات متناقضة، ومن مثل هذا الركام يُصْنع التاريخ، مهما قيل بعد ذلك في التمحيص والتدقيق!!

فمجرد الكلام عن استفتاء التاريخ بما جاء به القرآن الكريم من القصص، كلام تنكره القواعد العلمية المقررة التي ارتضاها البشر، قبل أن تنكره العقيدة التي تقرر أن القرآن هو القول الفصل، وهو كلام لا يقول به مؤمن بالقرآن، ولا مؤمن بوسائل البحث العلمي على السواء، إنما هو مراء!!.

لقد سأل سائلون عن ذي القرنين، سألوا الرسول ﷺ فأوحى إليه الله بما هو وارد هنا من سيرته، وليس أمامنا مصدر آخر غير القرآن في هذه السيرة، فنحن لا نملك التوسع فيها بغير علم، وقد وردت في التفاسير أقوال كثيرة، ولكنها لا تعتمد على يقين وينبغي أن تؤخذ بحذر، لما فيها من إسرائيليات وأساطير[١].

مثل للملك الصالح المصلح:

وسواء اهتدينا إلى شخصية معينة مؤكدة نطلق عليها اسم ذي القرنين، ونطبّق عليها التفاصيل التي جاءت في القرآن، أو لم نهتد

---

(١) (في ظلال القرآن) الجزء السادس عشر، الطبعة الخامسة. لسيد قطب، ص٨، ٩، ١٠.

إليها في ضوء التاريخ الذي لا نملك منه إلا القليل الناقص الذي تأخر تدوينه، وتعسر الجزم به، والاعتماد عليه، فإن ذلك لا يضر قارىء القرآن ولا ينقصه، فهو رجل آتاه الله القوة والأسباب، وعلوَّ الهمة والطموح المحمود، ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۝ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ [الكهف: ٨٤ ـ ٨٥]. لقد اتَّسعت فتوحاته، وامتدت إلى أقصى الشرق (مطلع الشمسِ)، وإلى أقصى الغرب (مغربَ الشمسِ)، فكان في كل فتوحه ومغامراته، صالحاً ومصلحاً، منتصراً للحق، ناصراً للضعفاء، قاهراً للطُّغاة الأقوياء، وكان من مبدئه وخطته ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ۝ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ [الكهف: ٨٧، ٨٨] وما أفضله من مبدأ، وما أعدله من خِطَّة، وما أقومه من خُلُق وسيرة.

وواصل فتوحه ومغامراته حتى وصل إلى أمة تعيش في فَجْوة من جبلين، تعيش في خطر دائم، وفي قلق دائم، من أمة همجية وَحْشيَّة، وراء الجبال، يذكرها القرآن، وتذكرها الصحف السماوية بيأجوج ومأجوج[1]، تعيش في حياة مضطربة دائماً، متصارعة

---

(١) ونحن نؤيد الأستاذ سيد قطب فيما قال في تفسير هذه المجلات، إذ قال: «ونحن لا نستطيع أن نجزم بشيء عن المكان الذي بلغ إليه ذو القرنين (بين السدَّين) ولا ما هما هذان السدَّان، كل ما يؤخذ من النص أنه وصل إلى=

دائماً، ﴿ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ [الكهف: ٩٩]. ورأوا أنَّ الفرصة سانحة، وأن الله قد قيَّض لهم، وساق إليهم ملكاً صالحاً قوياً، فطلبوا منه أن يحفظهم من هؤلاء الوحوش المفسدين، ويستعمل وسائله الكثيرة، وجيشه الكثيف في بناء السدِّ الذي يحول بينهم وبين يأجوج ومأجوج، وعرضوا عليه أموالهم.

وقَبِلَ الرجل الصالح طلبهم، ووعدهم ببناء السد، واستغنى بما آتاه الله من الخير الكثير عن أموالهم، بخلاف الملوك الطامعين،

= منطقة بين حاجزين طبيعيين، أو بين سدَّين صناعيين، تفصلهما فجوة أو ممر، فوجد هنالك قوماً متخلفين: ﴿لا يكادون يفقهون قولاً﴾ (ج ١٦، ص١٣).

أما يأجوج ومأجوج، وتحديد جنسيتهم ومكانهم، وزمن خروجهم، وأوان فتح السدِّ، فكل ذلك يطول البحث فيه في ضوء التفسير، وما ورد في الأحاديث من أشراط الساعة، والفتن والملاحم؛ ويصعب الجزم بشيء على طريق التعيين والتأكيد، والإطلاق والتطبيق، فنحيل القارىء إلى كتاباتِ مَنْ توسَّعوا في هذا الموضوع من المتقدِّمين والمتأخِّرين على قلَّة عددهم وندرة كتاباتهم، ولا تزال أبواب الفتن والملاحم والأحاديث التي جاءت فيها أشراط الساعة، وما كان، ويكون بين يدي الساعة، تنتظر باحثاً عالي الهمة، راسخ القدم في العلوم الدينية، عالي الكعب في التاريخ، صبوراً دؤوباً في الدراسة والبحث، سليم العقيدة، حسن القصد، فإنها من أدق العلوم وأوسعها بحثاً، ولعل الله يُحدِث بعد ذلك أمراً.

وطلب منهم أن يساعدوه بالسواعد، وما يوجد في بلادهم من الحديد والفولاذ: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۝٩٥ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ [الكهف: ٩٥، ٩٦]. وتعاون الجميع في بناء هذا السدِّ المبارك، الملك الصالح بحكمته وصُنَّاعه، وأهل البلاد بأيديهم وحديدهم: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: ٩٦]

وتهيَّأ السدُّ وتم المشروع، وأَمِنَ القوم الأعداء وراء الجبلين الشامخين، والسدِّ المنيع ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧]

فقه المؤمن العليم:

وهنا تجلَّى الإيمان في الملك القوي الغني، القاهر للأمم، الفاتح للعالم، فما زَهَا، وما سَهَا، وما تكبَّر، ولم يقل: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [سورة القصص: ٧٨]، بل ردَّ الفضل في كل ذلك إلى الله تعالى، ولم يعتقد أن عمله دائم خالد، وأن السدَّ لا سبيل إليه، بل قال في فقه المؤمن العليم، المؤمن بالآخرة، والعليم بضعف الإنسان، وتقلُّبات الزمان، ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [سورة الكهف: ٩٨].

هذه سيرة الإنسان القويِّ العليم الذي يسخِّر القِوَى الكونية

والماديَّة، ويملك أعظم مقدار من الأسباب والوسائل، ويوسِّع فتوحه ومغامراته، وهو في كل ذلك وفي أوج قوته وسلطته وسيادته، وتسخيره للقوى والأسباب، مؤمن بربِّه خاضع له، مؤمن بالآخرة ساعٍ لها، مُقِرٌّ بضعفه، رحيم بالإنسانية وبالأمم الضعيفة، حامٍ للحق، يستخدم كل قوَّته وجهده ومواهبه، وجميع وسائله وذخائره، لخدمة الإنسانية وتكوين المجتمع الصالح، وإعلاء كلمة الله، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة الناس والمادة إلى عبادة الله؛ سيرةٌ مثَّلها سليمان بن داود عليهما السلام في عصره، ومثَّلها ذو القرنين في عصره، ومثَّلها الخلفاء الراشدون، والأئمة المهديون في عصورهم.

طابع الحضارة الغربية، الثورة على فاطر الكون:

وقد كان من المصادفات الأليمة المحزنة، والمآسي الفاجعة للبشرية أن الحضارة الغربية قد ولدت وترعرعت في عصر، قد ثار على الدين وأسسه، من الإيمان بالغيب وغير ذلك، وفي أمة قد ثارت على الذين تزعَّموا الدين واستغلُّوه لشهواتهم وأنانياتهم، واشتدَّ غضبها عليهم لسوء سيرتهم، وهمجيتهم، ووقوفهم في سبيل التقدم، وحرية العقل والعلم[1]، فرافق نشوء الحضارة

(١) اقرأ تفصيل ذلك في كتابنا «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» الفصل الأول من الباب الرابع.

والصناعة، والاتجاه المادي العنيف ـ الاتجاه إلى تنظيم الحياة ـ على أسس ماديَّة خالصة، وقطع صلة المجتمع والبشرية عن فاطرها، ومصرِّف هذا الكون.. وكل ذلك اقتضته سلسلة الأسباب، وطبائع الأشياء، ووضع أوروبا الخاص، فشبّت هذه الحضارة واختمرت مع الإلحاد والإفساد، وقد أصبحت المسيطرة على القوى والأسباب، وبلغت الغاية في التقدم والصناعة، وعلوم الطبيعة، حتى استطاعت أن تعدم المساحات والأبعاد، وتجاوز الكرة الهوائية، واستطاع الإنسان أخيراً أن يصل إلى القمر، إلى غير ذلك من الفتوح في دائرة العلوم الطبيعية والفلكية.

فالجمع بين القوة الهائلة، وتسخير القوى والأسباب، والاستيلاء على الكون، وبين الكفر والمادية، طابع الحضارة الغربية، وسِمَتها وشعارها، فلم نعرف حضارة بلغت من القوة والتقدم، وإخضاع القوى والأسباب، ومن محاربة الأديان والأخلاق، والثورة على فاطر الكون وشرائعه، والدعوة إلى عبادة المادة، والنفس والشهوات، وادّعاء الربوبية ما بلغت هذه الحضارة.

منتهى الحضارة المادية:

لقد شبَّت هذه الحضارة كما قلنا مسيطرة على الكون، كافرة بالله، مؤمنة بالمادة، ونشأ رجالها لا يؤمنون إلاَّ بقوتهم

وصناعتهم، ولا ينظرون إلاَّ إلى فائدتهم ومصلحتهم، وأصبحت مراكزها الكبرى ـ أمريكا، وأوروبا بما فيها روسيا ـ حرباً ـ بإعلان وغير إعلان ـ على الغَيْب والروح والأخلاق، والنُّظُم السماوية، وقَرُب الزمان الذي تبلغ فيه هذه الحضارة غايتها المادية والصناعية، ويظهر زعيمها الأكبر الذي ينعته لسان النبوة، ويلقبه بـ(الدجال)(١). وهو في ذروة التقدُّم المادي، والصناعي، وأوج

---

(١) قد بلغت الأحاديث التي ورد فيها ذكر (الدجَّال) وكثير من صفاته حدَّ التواتر المعنوي، ونصَّت على أنه شخص معيَّن بصفات معينة، يظهر في زمن معين لم يحدّ بالتاريخ والتوقيت، في شعب معين هم اليهود، فلا سبيل إلى إنكاره، ولا ضرورة في ذلك، وفي ظهوره وعلو كلمته في فلسطين، وهو المسرح العالمي الأخير الذي تتمثل عليه أروع قصة للصراع بين الإيمان والمادية وبين الحق والباطل، وبين أهل الحق الشرعي والطبيعي، الذين أكبر سلاحهم وحجتهم، أنهم حَمَلة الدين والحق، والدعوة إلى الله، وإلى إسعاد الإنسانية والمساواة البشرية وبين أولئك الذين يؤمنون بقدس عنصر واحد، ودم واحد، ويكافحون لإخضاع العالم ووسائل الإنسانية لسيطرة هذا العنصر وسيادته، ويملكون أعظم الوسائل العلمية، والطاقات الفنية، وقد بَدَت طلائع هذا الصراع الحاسم في مصير الإنسانية على أفق الشرق العربي الإسلامي، وبدأت الحوادث والظروف تُهيىء الجو المناسب والبيئة الصالحة التي تتمثل فيها هذه القصة على يد أبطالها الحقيقيين.

الكفر بالله، والدعوة إلى المادية والإلحاد وعبادة الطبيعة والأسباب، ومن يسخِّرها ويسيطر عليها، تلك فتنة العصر الأخير، وداهية العالم ومنتهى الحضارة المادية، التي ظهرت قبل قرون في أوروبا.

سِمَة الدجال الكفر والإفساد:

إن ذلك كلَّه تصوير للحضارة المادية، والصناعية الميكانيكية والعلوم الطبيعية، التي تبلغ غايتها ونهايتها، ويتزعَّمها الدجال، ولكن ذلك لا يكفي ليجعله الدجال، ويلهج لسان النبوة بذمِّه وتشنيعه، والتحذير من فتنته، فقد مَلَكَ هذه الأسباب والقوى سليمان في عصره، وذو القرنين في عصره، وتحدَّث القرآن عن قوتهما وسرعتهما وكثرة الأسباب والقوى التي كانا يملكانها، فما هي النقطة الفارقة بينهما وبين الدجال، وما هو الخط الفاصل بين الملِك الصالح، والرجل القوي العليم، الذي يمدحه الله تعالى ويقول: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [سورة ص: ٣٠]، وبين الشخصية الفتَّانة التي حذّر منها الرسول، وخافها على أمته واهتم بها هذا الاهتمام الكبير؟.

إنَّ النقطة الفارقة، والخط الفاصل، أنَّ سليمان وذا القرنين ومن أشبههما من الأفراد والجماعات من المسلمين في القرون الأولى، قد جمعوا إلى القوة الفائقة، والملك الواسع والحكمة المدهشة، وتسخير القوى الطبيعية والأسباب المادية: الإيمان

الراسخ، والعمل الصالح، والسيرة الفاضلة، والمقاصد الخيِّرة، والدعوة إلى الله وإلى الحق، واستخدام كل ما أوتوه من علم وحكمة وسبب وقوة في إسعاد البشرية، وخدمة الإنسانية، والرحمة والعدل، فقد وصفهم القرآن بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [سورة الحج: ٤١] وبقوله: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة القصص: ٨٣].

أما الدجَّال فَسَمْتُهُ وطابعه الذي عرَّف الرسول به أمته، فهو (الكفر) بمعانيه الواسعة الكثيرة، فقد جاء في حديث صحيح: «أنه مكتوب بين عينيه ك ف ر يقرأه كل مؤمن كاتب أو غير كاتب»[1].

تأثير الدجال في الحياة والمجتمع:

ويظهر من الأحاديث أنه داعٍ متحمس، نشيط مؤثِّر يدعو إلى الكفر والثورة على الأديان والأخلاق، فقد جاء في حديث آخر: «فوالله إنَّ الرجل ليأتيه وهو يحسب أنَّه مؤمن فيتبعه، ممَّا يبعث به الشُّبُهات»[2]، ويستفحل أمره ودعوته حتى يستشري الفساد على

---

(١) رواه البخاري.

(٢) أبو داود.

مرّ الأيام، في النساء والبنـات، ويتغلغل في الأسر والبيوتات، ويفقد ربُّ البيت سلطانه ونفوذه على أفراد الأسرة، وعلى الزوج وربّات الحجال والأمهات والأخوات والبنات، وقد جاء في حديث: «ينزل الدجّال بهذه السَّبْخة بمرِّ قناة، فيكون آخر من يخرج إليه النساء، حتى أن الرجل ليرجع إلى أمه وابنته وأخته وعمته فيوثقها رباطاً مخافة أن تخرج إليه»[١].

ويستمر فساد المجتمع، والتحلل الخلقي: «فيبقى شرار الناس في خِفَّة الطير وأحلام السباع، لا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً»[٢]، ولا أبلغ من هذا التعبير، ولا أصدق من هذا التصوير، للحضارة الكافرة المادية في أوج تقدُّمها وازدهارها، وفي أعظم مراكزها، وأمصارها، وهي معجزة من معجزات النبوة الخالدة، ومن جوامع الكَلِم التي لا تنقضي عجائبها، ولا تَخْلَقُ جِدَّتها، فقد جمعت هذه الحضارة بين خِفَّة الطير التي تطير بها في الفضاء، وسخَّرت بها الهواء، وأصبح بها الإنسان العصري أسرع وأخفُّ من الطائر، وبين الهمجية السَّبْعيّة التي تدمر بها البلاد والعباد، وتُهْلِكُ بها الحَرْث والنَّسْل في قسوة وهمجية، لا نظير لها في التاريخ،

---

(١) رواه الطبراني عن ابن عمر.

(٢) رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

وهذا كلُّه في خفضٍ من العيش، وَسعَةِ الرزق، وتوفرٍ من الأسباب التي تكفل الهناء والراحة، التي لم تعرف في دور من أدوار التاريخ، «وهم في ذلك دارَ رزقهم حسن عيشهم»[1].

يحسبون أنَّهم يحسنون صنعاً:

إنَّ هذه الحضارة، كما قدَّمنا تكفر بكل ما وراء هذا العالم المادي، والحياة الدنيا، وتركِّز الجهود والمواهب، وتكرِّسها على ترقية هذه الحياة وترفيهها، لذلك يقول الله في ضمن الآيات الأخيرة من هذه السورة الكريمة في صراحة ووضوح، كأنَّه يخاطب رجال هذه الحضارة المادية وقادتها، وتلاميذهم النجباء الأوفياء في العالم الإسلامي، وفي الشعوب المسلمة بالتعيين، ويصوِّرهم تصويراً دقيقاً تتجسَّم فيه ملامحهم وقَسَمات وجوههم، وما أبلغ هذه الآيات التي تكلَّفت الردَّ على المادِّيّة الملحدة وزعمائها الدجّالين الذين ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوٓا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١]، وما أصدقها انطباقاً على اليهود الذين أعرضوا عن الآخرة وتناسَوها في تاريخهم الطويل المليء بالحوادث، وفي نشاطهم الباهر، الذي لعب دوراً حاسماً في مجال العقل والحكمة، والصناعة والسياسة، وفي انقلاب الحكومات

---

(١) رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو.

والنُّظُم وحدوث الثورات، وفي توجيه عبقريَّتهم ومواهبهم، وذكائهم إلى الأعمال السلبية الهدَّامة، ونشر القلق والفوضى، والسَّعي وراء كسب القوَّة والسيادة لعنصر واحد، هو العنصر الإسرائيلي المقدَّس، وشعب واحد، هو شعب الله المختار.

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٥].

قصور العلم والعقل البشري وعدم الإحاطة (بكلمات) الله:

ثم عاد فعارض النظرة المحدودة إلى الكون والعلم القاصر، الذي يزعم الإحاطة بهذا الكون الواسع، بما فيه الأرض والسماوات، والمخلوقات والموجودات، والنجوم والكواكب، وما اشتمل عليه البر والبحر، والفضاء والخَلاء، وما حواه علم الله وقدرته، ويتيه به أصحابه، ويتطاولون بعلمهم ومعلوماتهم، ودراستهم لهذا الكون، مع أنَّ كل ذلك لا تبلغ قطرة من البحر، ولا ذرَّة من صحراء واسعة.

وهذا التِّيه والإعجاب، والاعتماد الزائد على المعلومات والدراسات، وما وصل إليه العلم البشري في عصر من العصور، وإنكار كل ما وراءه، وهذا الصَّلَف والغرور، وضيق الفكر وقصر النظر، هي الجرثومة التي ولَّدت الماديَّة بجميع معانيها، أو بجميع

مفاسدها وشرورها، وهي النَّفسية البشرية المنحرفة، التي حَمَلت مرة على الظلم والطغيان، وادِّعاء الألوهية والربوبيَّة، واضطهاد من أكرمهم الله بالمعرفة الحقيقية، والنظرة العميقة الواسعة، كما جاء في قصَّة أصحاب الكهف. ومرَّة أخرى على الاقتصاد الموجود المحدود، والمتعة الزائلة، والسراب الخادع، واعتقاد الخلود، وبقاء أسباب الرفاهية والهناء وتحقير من كان قليل الحظ من هذه الأسباب، كما جاء في قصَّة صاحب الجنَّتين.

وقد يحمل العلم البشري المحدود على استغراب كل ما ينافي بادي الرأي، ومقتضى العقل، وظاهر المحسوس، كما جاء في قصَّة موسى والخضر. وقد تخطىء العين القصيرة النظر، فتخيِّل البعيد قريباً، والمجاز حقيقة، فخيَّلت لذي القرنين أنَّ الشمس تغرب في عين حمئة ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ [الكهف: ٨٦]، وخيَّلت لملكة سبأ الصرح الممرَّد من قوارير لُجَّةَ ماء، فعاملتها معاملة ماء وكشفت عن ساقيها: ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴾[1] [النمل: ٤٤]. فجاءت خاتمة هذه السورة قرينة بمقدِّمتها تبرهن على أن علم الله أعظم من علم البشر، وعلى أنَّ الكون أوسع مما عرفه الإنسان، وعلى أنَّ كلمات الله ـ بمعناها

(١) القصة بطولها في سورة النمل.

الواسع[1] ـ لا يحيط بها علم إنسان، ولا يكفي لتسطيرها الأشجار، إذا تحوَّلت أقلاماً، والبحار إذا أصبحت مداداً[2]، ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ

---

(١) جاء في روح المعاني للعلامة الآلوسي: «والمراد بكلماته تعالى كلمات علمه سبحانه وتعالى وحكمته، وقيل المراد بها مقدوراته جل وعلا، وعجائبه عزَّ وجلَّ، التي أراد الله سبحانه شيئاً منها، قال تبارك وتعالى: ﴿ كُن فَيَكُونُ﴾».

(٢) ألقى العلم الحديث أضواءً لم تكن تخطر بالبال على سَعَة الكون وعالم الوجود، والأبعاد الهائلة بين النجوم والكواكب، وبينها والأرض، والمسافات التي يقطعها الضوء، وعدد النجوم المقدَّر بمليارات في مجرَّة واحدة، وكثرة عوالم السُّدُم، وعدد السُّدُم فيها، وكثرة الشموس، وأحجام النجوم والشموس وأوزانها، والنواميس والقوانين الدقيقة العجيبة التي تنظم هذه الكائنات الهائلة، وتضبط التناسب والتوازن بينها في الفضاء، وتحافظ على الحياة في الأرض، وأسرار نسبة البحر من البر، ووضعه الحكيم، وما اشتمل عليه علم الفلك الحديث من العلوم والحقائق، وهذا ما عدا علم الأحياء، وعلم التشريح، وعلم النبات والحيوان، وغير ذلك من العلوم التي دقَّت وتوسَّعت توسُّعاً لم يكن الإنسان في الماضي يحلم به ويتخيَّله، وتكوَّنت فيها مكتبات، وقامت مختبرات لم تكن بالحساب، وهذا كلُّه غير الموجودات المجهولات للإنسان التي تربى على معلوماته بنسبة بعيدة، وصدق الله العظيم: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي . . . ﴾ [الكهف: ١٠٩].

مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف: ٩ ـ ١٠]، وقال في سورة لقمان: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان: ٢٧].

الحاجة إلى النبوَّة، وسرّ اختصاص النبيّ:

وهنا ينشأ سؤال، إذا كان هذا الكون بسَعَة أرجائه، وكثرة موجوداته، وإذا كانت كلمات الله لا تكفي لها الأشجار أقلاماً، والبحار مداداً، وإذا كان كل ذلك فوق الطاقة البشريَّة، ووراء العقل البشري، والعلم البشري، فما السبيل إلى معرفة خالقه، ومعرفة صفاته وآياته، وحلِّ لُغْزِ الحياة، والاهتداء إلى سبيل السعادة والنجاة، وما فضل نبي على غيره، إذا كان بشراً؟ والبشر، عقله قاصر، وعلمه محدود.. وعن كل ذلك تجيب الآية الكريمة، فتقول عن لسان محمَّد ﷺ: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [الكهف: ١١٠].

فالسرُّ في هذا الامتياز والاختصاص، ومصدر هذه المعرفة الصحيحة التي لا سعادة للبشر بغيرها، هو (الوحي): ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ [الكهف: ١١٠].

والآخرة أخيراً:

ويختم الله السورة بالحديث عن الآخرة، وتفخيم شأنها، والدعوة إلى جعلها أساساً لهذه الحياة، ولكل عمل، فجعل النهاية مقرونة بالبداية، منسجمة مع الروح السارية في السورة كلِّها، فيقول: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

* * *

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة